

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190748

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ٨٩٢٦٤٤ - ٢ - ف Accession No. ١٨٠٢١

Author

Title

المخوف، المصطفى
١٦٥٦
الكتاب المختار في الأدب العربي

This book should be returned on or before the date last marked below.

في الأدب والنقد

(٢)

الفكر كاهن في الأدب أصولها وأنواعها

الجزء الثاني

تأليف

الدكتور
أحمد محمد أيحوى
أستاذ تاريخ الأدب المساعد
بكلية دارالعلوم

مستند الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالجيزة

١٨ شارع كامل مدق

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية بإشراف الأستاذ عمر الدسوقي رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دارالعلوم

الكتاب الثالث من هذه السلسلة :

« السرقات الأدبية »

بقلم

الدكتور بدوى طبانة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نخبة مصر بالغبالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد :

فهذا هو الجزء الثاني من كتاب (الفسحة في الأدب) .

وهو يكمل الجزء الأول ، ويمثله في منهجه وطريقته .

أرجو أن يكون الجزآن معاً قد سدَّ فراغاً في الدراسة الأدبية ، أو فتَّحاً

باباً لهذه الدراسة التي كانت — على شدة الحاجة إليها — مهملة أو معطلة .

والحمد لله في الأولى وفي الآخرة ما

أحمد محمد الحوفي

تأهيرة في / دى 'معدّة ١٣٧٥
١٩٥٦ و مد

الرَدَّ بِالْمِثْلِ

او مراعاة النظير في الرد

١ - هذا لون آخر من ألوان الفكاهة ، مَبْنَعَثُ الضحك فيه أن المتكلم الأول قصد إلى التَسَدُّر أو الاستهزاء بالسامع ، فإذا بالسامع يَبْغْتُهُ برد أشد تَسَدُّراً ، وأكثر استهزاء ، وأدعى إلى الضحك .

وهو في رَدِّه حاضر البديهة ، سريع الخاطر ، ماهرٌ في مراعاة النظير واختيار الرَدِّ المجانس للكلام الذي سمعه . وهذه المفاجأة الباردة في الرد المجانس مثيرة للضحك .

٢ - من ذلك أن الأخطل مرَّ بالفرزدق وهو صبي ، فقال : أيسرك أن أكون أباك ؟ قال الفرزدق : لا ، ولكن يسرنى أن تكون أمي ، ليأكل أبي من أطايبك^(١) . أراد الأخطل أن يغيظ الصبي ويُحَقِّر من شأن أبيه ، فسأله : أيسرك أن أكون أنا أباك بديلاً من أميك ؟ فرد عليه الصبي في سرعة بديهة قائلاً : لا ، يسرنى أن تكون أمي . ولو أنه افتصر على ذلك لكان قد أحم الأخطل ، وثأر منه ، لكنه زاد على ذلك قوله (ليأكل أبي من أطايبك) فزاد أباه عزة ، وزاد الأخطل تحقيراً ونكالا .

ومن أمثله ما رواه الجاحظ عن نفسه ، قال : رأيت امرأة طويلة القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن أمارحها ، فقلت لها : انزلي ، كلى معنا . فقالت : بل اصعد أنت حتى ترى الدنيا . فهو أراد أن يسخر من طولها ، فسخرت هي

من قصره ، والقصر أجدر بالسخرية من الطول . وزادت على ذلك أنها طالبت به بأن يصعد ليرى الدنيا ، كأنها تقول له إن قصرك يحول بينك وبين رؤية ما في العالم ، فأنت إذا كالأعمى .

ومن أمثلة ذلك أن شاعرا أتى إلى محمد بن مكرم فقال : إني قد هجوتك بشعر . فقال له : قل ، فوالله لئن أحسنت لأخلمن عليك خلعاً . فأنشده :
يا فتى مكرم تسبح عن الفخر فما مكرم وما دينار ؟
لا تفاخر إذا فخرت بهذين ، فذا كودن وذاك حمار^(١)
فقال له محمد بن مكرم : أحسنت ، ولكنى أكسوك من ثيابنا . يا غلام ، ارم عليه جُلاً وبرذعة^(٢) .

وفي هذا المثال تهكم الشاعر بابن مكرم ، ودعاه إلى ألا يفتخر بأبويه مكرم ودينار ، لأنهما بفل وحمار . وكان ابن مكرم قد وعدّه أن يكسوه حلة إذا أجاد ، فكان من توفيقه في رده أن جعل الكسوة جُلاً مما يوضع فوق الدواب ، وبرذعة توضع فوق الحمار أو البغل ، وإدأ فقد راعى النظر في رده ، وأخفم الشاعر الذي بدأ بالسخرية والاستهزاء .

٣- ولقد تكون مراعاة النظر مبنية على التعبير ومراعاة اللفظ الذى نطق به الأول ، فيرد الثانى بلفظ من وادى اللفظ الأول ، ويؤدى به المعنى الذى يريد . من هذا أن الجاحظ أكل مع محمد بن عبد الملك الزيات ، فجاءوا بفالودج ، فأراد ابن الزيات أن يداعب الجاحظ ، فأمر أن يحمل فى جهته الجزء الرقيق من الصَّحفة . فأسرع الجاحظ بالأكل ، فنقد ما بين يديه . فقال له ابن الزيات : تَقَشَّعَتْ سَمَاؤُكَ قَبْلَ سَمَاءِ النَّاسِ . فقال الجاحظ : لَأَنْ غَيِّمَهَا كَانَ رَقِيقاً . فتعبير ابن الزيات بقوله (تقشعت سماءك ...) تمثيل أراد به نقاد الفالودج الذى

بين يدي الجاحظ : وردُّ الجاحظ بقوله (لأن غيمها كان رقيقاً) مماثل لكلام ابن الزيات ، لأن الغيم هو الذى ينقشع .

أُصْنِدَ أُخْرَى

* أسرت مُزينة ثابت بن المنذر الخزرجى والد حسان ، وقالوا : لا نأخذ فداءه إلا تيساً . يريدون تحقيره بذلك . فغضب فومه ، وقالوا : لا تفعل هذا . فأرسل إليهم ثابت أن يعطوا مزينة ما طلبوا . فلما جاءوا بالتيس قال ثابت : أعطوهم أخاهم ، وخذوا أخاكم . فسُمُّوا مزينة التيس ^(١)

* منع عمرو بن العاص عن جنوده ما كان يصل إليهم . فقام إليه رجل منهم فقال : أيها الأمير ، اتخذ لك جنوداً من حجارة لا تأكل ولا تشرب . فقال له عمرو : احسناً أيها السكاب . فقال الرجل : أنا من جنودك ، وإن كنت كلباً فأت أمر السكاب وقائدها ^(٢) .

* مر أبو الأسود الدؤلى بجماعة ، وكان فيهم رجل بدىء اللسان يكثر الاستهزاء بمن يمر به ، فلما مر بهم أبو الأسود قال الرجل لقومه : كأن وجه أبى الأسود وجه عجوز راحت إلى أهلها بطلاق . فضحكوا ، وأعرض عنهم أبو الأسود . ثم مر مرة أخرى ، فقال الرجل : كأن غضون قفا أبى الأسود غضون الفِخَّاح ^(٣) . فأقبل عليه أبو الأسود فقال له : هل تعرف فِخَّحَةً أمك فيهن ؟ فأخذه ، وضحك القوم منه . وقاموا إلى أبى الأسود فاعتذروا إليه ، ولم يعاود الرجل الاستهزاء ^(٤) .

* قال يهودى لعلى بن أبى طالب ، ما لكم لم تَلْبَسُوا بعد نبيكم إلا خمسَ عشرة سنة ، حتى تقاتلتم ؟ فقال على : وأنتم لم تكسدا أقدامكم تحبف من البَلَلِ

(١) الأدب ٨٨ (٢) الأدب ١٠٨

(٣) الفخاخ : جمع فخخة وهى حافة الدبر (٤) الأغاني ١١/١٠٤

حتى فلتم : يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة^(١) . أشار على كرم الله وجهه إلى طلب بنى إسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلهًا بعد فرارهم من مصر ، واخترافهم البحر .

دخيل عقيل بن أبي طالب — وقد كَفَّ بصره — على معاوية ، فأجلسه معه على سريريه ، ثم قال له : أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم . فقال عقيل : وأنتم معشر بني عبد شمس تصابون في بصاركم^(٢) .

قال عمرو بن العاص لمعاوية : رأيت في النوم أن القيامة قد قامت ، وحي بك ، وقد ألحك العرق . فقال معاوية : هل رأيت هناك شيئًا من دنانير مصر^(٣) ؟

* بينما معاوية بن مروان بن الحكم واقف بدمشق ينتظر عبد الملك أخاه على باب طحان ، وحماره يدور بالرحى ، وفي عنقه جُلجُلٌ ، قال للطحان : لم جعلت في عنق هذا الحمار جلجلًا ؟ قال : ربما أدركتني سائمة أو نَمَسَةٌ ، فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت أن الحمار قد توفف ، فصيحيتُ به ليمشي ، قال معاوية : أفرأيت إن توفف — ثم هز رأسه هكذا وهكذا ، وحمل يحرك رأسه يَمْنَةً ويسرة — فما يدريك أنه متوقف ؟ قال الطحان : ومن لي بحمار يعقل مثل عقل الأمير^(٤) ؟

• اشترى مَرْبَدُ المديني رأسين ، فوضعهما بين يدي امرأته ، وقال لها : افعمدي لنا كل . فأخذت رأساً ، فوضعت خلفها ، وقالت : هذا لأخي . فأخذ مَرْبَدُ الرأس الآخر ، ووضعه خلفه ، وقال : وهذا لأخي . قالت : فإذا نأكل ؟ قال ضمعي رأس أمك ، وأضع رأس أبي^(٥)

(١) المستطرف ٥٥/١ (٢) المستطرف ٥٥/١

(٣) رسالة العمران لأبي العلاء ٥٢٣ (٤) البيان والتبيين ٢٦١/٢

(٥) ديل زهر الآداب ٣٠٠

* قال رجل للفرزدق ؛ من أنت ؟ قال : فرزدق . قال : لانعرف فرزدقا إلا فتيتاً تأكله نساؤنا . قال الفرزدق : الحمد لله الذى جعلنى فى بطون نساءكم ^(١)
 * دق رجل باب الجاحظ ، فقال الجاحظ : من ؟ قال الرجل : أنا . قال الجاحظ : لا أعرف من اسمه أنا ^(٢) .

* دق إسان على بشار بن بُرْد ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا . فقال بشار : انصرف يا أنا ^(٣) .

* قال الشَّعْبِيُّ لخياط : عندنا زير مكسور ، أتخيطه ؟ فقال الخياط : إن كان عندكم خيوط من ربح ^(٤) .

* دخل مجنون الطاق يوماً إلى الحمام ، وكان بغير منزر ، فرآه أبو حنيفة ، وكان فى الحمام ، فأغمض عينيه . فقال له المجنون : متى أعماك الله ؟ قال : حين هتك سترك ^(٥) .

* كان أبو الحارثُ جُحَيْنٍ يكره الباذنجان كراهية شديدة ، فأولم محمد بن يحيى البرمكى ولية لأصحابه ، وأمر الطبايح أن يجعل الباذنجان فى جميع الطعام ، وحضر أبو الحارث هذه الولية ، وكلما فُدم لون وهمَّ بالأكل منه الباذنجان الذى يراه ، إلى أن ضاق . فاضطر إلى الأكل ، فأكل ، فعمطش ، فقال : اسقونى ماء لباذنجان فيه ^(٦)

* خرج الرشيد للتنزه ، ثم انفردهو والفضل بن الربيع ، وبُئدا عن العسكر ، فلحقيا شيخا قد ركب حمرا ، فنظر الفضل إلى الرجل فإذا هو رطب العينين فقال له : أين تريد يا رجل ؟ قال : بستاناً لى . قال الفضل : هل لك أن أدلك على شئ تدأوى

(١) محاضرات الأدباء ٢/ ٢٠٥ . الفرزدق : جمع فرزدقة وهى القطعة من المعين . وبه سمى الفرزدق الشاعر واسمه همام (٢) محاضرات الأدباء ٢/ ٢٠٤ (٣) محاضرات الأدباء ٢/ ٢٠٦ (٤) عيون الأخبار ١/ ٣١٥ (٥) المنظر ١/ ١٥٦ (٦) ذوو الفكاكة ٦٦

به عينيك فتذهب هذه الرطوبة ؟ قال الرجل : ما أحوجنى إلى ذلك . فقال له : خذ عيدان الهواء ، وغبار الماء ، وورق السكأة ، فصيره في قشر جوزة ، واكتحل به فإنه يشفيك . فاتكأ الرجل وضرط ضرطة طويلة ، وقال : وأنت خذ هذه أجرة لوصفتك ، فإن نَفَعَتْنَا زدناك . فضحك الرشيد حتى كاد يسقط عن ظهر حصانه ^(١) .

* كان أبو نواس خارجا من دار الخلافة ، فتبعه الرقائشي الشاعر ، وقال له : أبشرْ أبا عليّ ، إن الخليفة قد ولّاك في هذه الساعة ولاية . قال أبو نواس : وما هي ، وبلك ؟ قال الرقائشي : ولّاك على القردة والخنازير . قال أبو نواس : إذا فاسمِعْ وأطع ^(٢) .

* دعا هارون بن عريب جحظة البرمكي إلى أكل القطائف ، وقال له : يا جحظة ، إن القطائف إذا حُشِيَتْ بالجوز أبْشِمَتْ ^(٣) ، وإذا حُشِيَتْ باللوز أُتْخِمَتْ . فقال جحظة :

دعاني صديق لي لأكل القطائف

وأَمَعَنْتُ فيها آمنا غير خائف

فقال : — وقد أوجمتُ بالأكل قلبه —

رُويَ بِنْدُكَ ، مَهْلا فهي إحدى المتائف

وقلت له : ما إن سمعنا بها لك يُبَادِي عليه يا قَتِيلَ القطائف ^(٤)

* كان أبو نواس يوما عند بعض إخوانه ، فخرجت عليه جارية بيضاء عليها ثياب

(١) الأدكياء ١٠٣ (٢) دوو الفسكاهه (٣) أبشمت : أنحمت

(٤) ذوو الفسكاهه ١٩

خضر ، ولما رآها مسح عينيهِ ، وقال : رأيت حلما أرجو أن يكون خيرا . فقالت الجارية : وماذا رأيت ؟ قال : ألك معرفة بعلم التعبير ؟ قالت : لا أعرف غيره . قال : رأيت كأني راكب دابة شهباء ، وعليها جُلٌّ أخضر ، وهي تمرح تحتى . فقالت : إن صدقت رؤياك . فسَتُدْخِلُ وَجْهَهُ (١) .

• قال رجل لبشار بن برد : ما أذهب الله عيني مؤمن إلا عَوْضَهُ حبرا منهما ، إما الحفظ والذكاء ، وإما حسن الصوت ، وبم عوضك ؟ قال بشار : فَقَدْ نُظِرَ النظر إلى المقلد مثلك (٢) .

• قالت قَيْنَةُ لَأَنَّى الْعِبْنَاءُ يَوْمًا : يَا أَعْمَى . فقال لها : مَا أَسْتَعِينُ عَلَى وَجْهِكَ بَشَى ، أَصْلَحَ مِنَ الْعَمَى (٣) .

• الخ ثقيل على الجاحظ أن يكتب له كتاباً يشفع به عند رجل يعرفه ، ورفض الجاحظ . لكن الثقيل ما زال به حتى أصبح رجلاً ، وكتب الجاحظ كتاباً . فأخذه الرجل ، ولما خرج فضه ، وإدا فيه : « كتابان إليك مع من لا أعرفه ، ولا أوجب حقه . فإن أنت قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك » . فعاد الرجل إلى الجاحظ ، وعاتبه في هذا . فقال له الجاحظ : لا بأس عليك ، فهذه علامة بيني وبين صديق إذا أردت منه العناية بإسنان . فقال الرجل : إدا فقطع الله لسانك ، وأعمى بصرك . وفصصم صُلبك . فقال الجاحظ : لماذا ؟ فقال الرجل : لا بأس عليك ، فهذه علامة بيني وبين الله إذا أردت الدعاء لإنسان .

• أحسن ابن الرومي بالشِّم ، وهو في مجلس الورير القاسم بن عبد الله ، فقام . فقال له الوزير الذي دس له السم : إلى أين تذهب ؟ قال إلى الموضع الذي وجهتني إليه قال : سلّم على والدي . فقال ابن الرومي : ليس طريقى على النار (٤) .

(١) نهاية الأرب ٢٠/٤ (٢) نكت الهميان ٦٦ ونهاية الأرب ٢٢/٤

(٣) نكت الهميان ٦٧ (٤) دوو المصاهاة ١٤٣

* كان رجل يستأجر غلاما ، فقال له : كم تطلب أجرا لك ؟ قال أخدمك بطعامي ، فقال الرجل : أكرِّمْنِي في الأجر . قال الغلام : لا أعرف إكراما في ذلك إلا أن أصوم لك يوم الاثنين والخميس في كل أسبوع لتوفر طعامهما ^(١) .

* شرب تمام بن جعفر مرة النبيذ ، وغناه الغنى ، فشق قميصه من الطرب ، فقال لمولى له إلى حابه : شق أيضا أنت قميصك . . وكان مولاه هذا من المعجائب في البخل ، فقال له : لا والله لا أشقه ، وليس لي غيره . قال : شقه وأنا أكرِّمك غدا . قال : وأنا أشقه غدا . قال : وما أصنع بشقك له غدا ؟ قال : وأنا ما أرجو من شقه الساعة .

قال الحافظ : ولم أسمع بإنسان بقايس ويناظر في الوقت الذي يُشَقُّ فيه القميص من عادة الطرب عمره وغير مولاه ^(٢) .

• أتى أعرابي رجلا بدرهم ، فقال له الرجل : هذا رائف ، فمن أعطاكه ؟ قال : اص مئلك ^(٣) .

* استسقى الأعمش بالناس يوما ، فأسرع في الصلاة قبل أن يتواري الناس . ولما انصرف تلقاه بعض الوزراء فقال له : أسرعت يا أبا عبد الله . قال : ليس علينا أن ننتظر حتى تشربوا وتأكلكوا ^(٤) .

* دعا جحظة نساء لبنى له حائطا ، فحضر ، ولما انتهى من بذائه اختلعا في الأجرة ، لأن البناء طلب عشرين درهما . فقال جحظة : إنما عملت يا هذا نصف يوم ، وتطلب عشرين درهما ؟ قال : أنت لا تدري ، إني قد بليت لك حائطا يبقى مائة سنة . وبينما هما كذلك سقط الحائط ، فقال جحظة : أهذا عملك الحسن ؟ قال البناء : فهل أردت أن يبقى ألف سنة ؟ قال : لا ، ولكن كان يبقى إلى أن تستوى أجرتك ^(٥) .

(١) محاصرات الأدباء ٢٩٠/١ (٢) البخلاء ٣٧/٢ (٣) البيان والتبيين ٩/٤

(٤) العقد الفريد ٣٩٠/٣ (٥) الإمتاع والمؤانسة ٢٨/١

* ركب أبو علقمة النحوى بغلا ، فوقت أمام أبي عبد الرحمن القرشى ، فقال : يا أبا علقمة ، إن لم يملك هذا منظرا ، فهل مع حسن منظره خبر تقصه عنه ؟ قال : سبحان الله ، أو ما بملك خبره ؟ قال : لا . قال : خرجت عليه مرة من مصر ، فقفزني قفزة إلى فلسطين ، والثانية إلى الأردن ، والثالثة إلى دمشق . فقال له أبو عبد الرحمن : تَقَدَّمْ إلى أهلك أن يدفنوه معك في قبرك ، فلمله يقفز بك إلى الصراط^(١) .

* اشترك أبو الحارث جُبَيْنٌ مع رفقائه في شراء لحم ، ووضعوه في قدر . فلما تلهوج اللحم ، نشل بعضهم قطعة ، وقال : تحتاج إلى ملح . ونشل آخر قطعة وقال : تحتاج إلى توابل . ونشل الثالث قطعة ، وقال : تحتاج إلى بصل . فرفع أبو الحارث القدر ، وقال : والله إن هذه القدر تحتاج إلى لحم^(٢) .

* لقي بعض الكتاب أبا العيناء في السَّحَر ، فجعل يتمعجب من تبكيه ، فقال له أبو العيناء : أشاركني في الفعل ، وتنفرد بالتمعجب^(٣) ؟ * أتى رجل إلى عبادي الصيرفي يستسلف منه مائتي درهم ، فقال له الصيرفي : وما تصنع بها ؟ قال : أشتري حمارا ، فلملي أربع عشرين درهما . قال الصيرفي : إذا أنا وهبتك العشرين درهما ، فما حاجتك إلى المائتين ؟ قال : ما أريد إلا المائتين . قال الصيرفي أنت لا تريد أن تردها علي^(٤) .

* كَيْنَا رَقَبَةُ بْنُ مَصْقَلَةَ الْقَاضِي فِي حَلْقَةٍ إِذْ مَرَبِه رَجُلٌ غَلِيظُ الْعُنُقِ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ جَاسَائِهِ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ هَذَا أَعْبَدُ النَّاسِ . فَقَالَ الْقَاضِي : إِنِّي أَرَى لَهُ عِنَقًا مَادَّقَتْهَا الْعِبَادَةُ . ثُمَّ مَضَى الرَّجُلُ لِسَانَهُ ، وَعَادَ فَرَّجَهُمْ . فَقَالَ رَجُلٌ لِقَاضِي : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، أَخْبِرْهُ بِمَا قُلْتَ حَتَّى لَا تَكُونَ غِييَةً ؟ قَالَ : نَعَمْ ، أَخْبِرْهُ أَنَّكَ حَتَّى تَكُونَ نَعِيمَةً^(٥) .

(١) دوو الفكاهة ١٢٦ (٢) دوو الفكاهة ٦٥ (٣) الصناعتين ١٩ ووفيات الأعيان ١ / ٥٠٥ . (٤) البيان والتبيين ٤ / ٥ (٥) نهاية الأرب ٤ / ١٠

* ادعت امرأة النبوة في عهد المأمون ، فأحضرت إليه ، فقال لها : من أنت ؟
 قالت : أنا فاطمة النبوية . فقال لها : أتؤمنين بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؟
 قالت : نعم . فقال المأمون : لقد قال محمد صلى الله عليه وسلم : لاني بعدى . قالت :
 صدق عليه الصلاة والسلام ، فهل قال : لانيية بعدى ؟ فضحك المأمون حتى
 غطى على وجهه^(١) .

* ادعى رجل النبوة في أيام المعتصم ، فأحضر بين يديه فقال له : أنت نبي ؟
 قال : نعم . قال : إلى من بُعثت ؟ قال : إليك . قال : أشهد أنك لسفيه أحمق .
 قال : إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم^(٢) .

* ادعى آخر النبوة في أيام المأمون ، فقال له : ما معجزتك ؟ قال : سَلْ
 ما شئت . وكان بين يدي المأمون قُفْل ، فقال : خذ هذا القفل ، فافتحه . فقال :
 أصلحك الله ، لم أفل إني حداد . فضحك المأمون واستتابه^(٣) .

* قال طبيب لمريض : لانا كل السمك واللحم . فقال : لو كانا عندى
 ما اعتللت^(٤) .

* قال رجل لبعض المغنين : أنت لاتعرف الثقيل الأول ولا الثقيل الثانى^(٥) .
 فقال المغنى : وكيف لا أعرفهما ، وأنا أعرفك وأعرف أباك^(٦) ؟

* طلب الخليفة المعتصم جارية كانت لمحمود بن الحسن الشاعر المشهور بالوراق ،
 وكانت تسمى نَشْوَى ، وكان المعتصم شديد الغرام بها ، فبذل في ثمنها سبعة
 آلاف دينار ، فامتنع الوراق من بيعها ، لأنه كان يهواها . فلما مات اشترى المعتصم
 الجارية من تركه الوراق بسبعمائة دينار . فلما دخلت عليه قال لها : كيف رأيت ؟

(١) نهاية الأرب ١٤/٤ (٢) نهاية الأرب ١٥/٤ والمستطرف ٢/٢١٩

(٣) نهاية الأرب ١٦/٤ (٤) محاضرات الأدباء ١ / ٢٧٠ (٥) نوعان من اللحن .

(٦) الأدكياء ١١٥

تركك حتى اشتريتك بسبعمائة دينار بدلا من سبعة آلاف. قالت : أجل ، إذا كان الخليفة ينتظر الموارث لاستمتاعه ، فإن سبعين دينارا لكثيرة في ثمنى ، فضلا عن سبعمائة . فنجعل المعتصم من ردها^(١)

* نظر الأصهباني إلى أبي هفان وهو يحدث رجلا في السر . فقال الأصهباني : ويم تكذبان ؟ قال أبو هفان : في مدحك^(٢) .

* قال الصاحب بن عباد أخجلني اثنان : أحدهما كان في جلسائي ، وودعت لهم مشمشا ، فأكثر من أكله ، فقلت له : لا تكثر منه ، فإنه يبلطح المعدة . فقال : ما يعجبني من يطب الناس على مائدته .

والآخر قال لي : — وقد حئت من دار السلطان وأنا صجير من أمر عرص لي — من أين أبلت ؟ فقلت : من لعنة الله . فقال : رد الله غربتك . فأحسن مع إساءة أدبه^(٣) .

* قال رجل لخياط : خط لي هذا الثوب . وساعني في الأجرة ، فقال : أحيطه لك بجانا . فقال : زدني . قال : إذا تحرق رفعته لك^(٤) .

* قال بعضهم : خرجت ليلة من قرية ابمعص شاني ، فإذا أنا بأعمى ، على عاتقه حرة ، ويده سراج ، فلم يزل يسبر حتى انتهى إلى النهر ، وملأ حرته ، وعاد . فقلت له : يا هذا ، أنت أعمى ، والليل والنهار عندك سواء ، فما تصنع بالسراج ؟ قال : يا كثير الفضول ، حملته لأعمى القلب مثلك ، يستضيء به ، لئلا يعمى في الظلمة . فبقع على^(٥) ، وأقع ، وتنكسر جرتي^(٥) .

* كان بالرقة رجل يُحدث الناس عن بني إسرائيل ، وكان يكنى

(١) وفيات الأعيان ٦ / ٥٥ طبعة محيي الدين . (٢) الأدكياء ١١٤

(٣) الأدكياء ١٠٩ . (٤) محاصرات الأدباء ١ / ٢٩٠

(٥) نهاية الأرب ٢ / ٢٢ ونكت الهميان ٦٧ والأدكياء ١١٧

أَبَا عَقِيل . فقال له الحجاج بن حَنْتَمَةَ : ما كان اسم بقرة بنى إسرائيل ؟ قال :
كان اسمها حَنْتَمَةَ . فقال له رجل آخر من درية أبى موسى الأشعرى : وى أى
الكتب وجدت هذا الاسم ؟ قال : فى كتاب عمرو بن العاص^(١) .

* جاء رجل إلى وجيه وقال له : أنا جارك ، وقد مات أخى ، فمرلى بكفن
قال الوجيه : لا والله ما عندى اليوم شيء . ولكن عد إلى بعد أيام ، فسـتجد
ما تريد . قال : فهل تُمكِّح الميت إلى أن يتيسر عندكم شيء^(٢) .

* سأل رجل عمر بن فَنَنْ عن الحصاة من حصى المسجد يحدها الإنسان
فى توبه أو حَفَّه أو على جهته . فقال له : ارم بها . فقال الرجل : زعموا أنها
تصبح حتى تُرَدَّ إلى المسجد . قال : دعها تصبح حتى يشق حلقها . قال الرجل :
هل لها حلق ؟ قال عمر : فمن أين تصبح إذا ؟^(٣) :

* نزع رجل ثيابه ، ونزل إلى النهر ليستحم ، وقال لفقيه : أتوجه إلى القبلة
أم إلى غيرها ؟ فقال له الفقيه : توجه نحو الجهة التى فيها ثيابك^(٤) .

* استأجر رجل حمالا ليحمل ففصا فيه هوارير ، وحمل أجره أن يعلمه
ثلاث وصايا نافعة . حمل الرجل القفص . فلما بلغ ثلث الطريق قال : هات الوصية
الأولى . فقال له : من قال لك إن الجوع خير من الشبع فلا تصدقه . فقال : نعم .
فلما بلغ ثلثى الطريق قال : هات الوصية الثانية . فقال له : من قال لك إن
المشي خير من الركوب فلا تصدقه . فقال : نعم .

فلما انتهى إلى باب الدار قال : هات الوصية الثالثة . فقال له : من قال لك
إنه وجد كَمْحًا لا أرخص منك فلا تصدقه .

(١) البيان والتبيين ٤/ ١٩ يسير إلى خديعة عمرو بن العاص لأبى موسى الأشعرى يوم انتكحهم
بين على ومعاوية (٢) البيان والتبيين ٤/ ١١ (٣) العقد الفريد ٣/ ٣٣١
(٤) الأدكياء ٧٢

فرى الجمال القفص على الأرض وقال : ومن قال لك إن هذا القفص قارورة واحدة صحيحة فلا تصدقه ^(١) .

* دعا بمض السلاطين مجنونين ليحرقهما ، فيضحك مما يجيء منهما . فلما أسمعاه غضب ، ودعا بالسيف ، فقال أحدهما لصاحبه : كنا اثنين فصرنا ثلاثة ^(٢) .

* نزل رجل عند قوم ، وأطال الضيافة ، فكرهوا إقامته . فقال الزوج لزوجته : كيف لنا أن نعلم مقدار إقامته ؟ قالت : تتشاجر غداً ونتحاكم إليه ، لنعلم متى يرحل . فتشاجرا ، وقالت الزوجة للضيف : أستحلفك بالله الذى يبارك لك فى سفرك غداً ، أينا أظلم ؟ فقال الضيف : والله الذى يبارك لى فى إقامتى عندكما شهراً ، ما أعلم أيكما أظلم ^(٣) .

* كان بمسجد الخليل إبراهيم عليه السلام شخصان أعميان ، أحدهما ناظر المسجد وأوقافه ، والآخر شيخ المسجد وخطيبه .

فأراد الناظر عزل الخطيب ، فعارضه الشيخ ومنعه . فقال له الناظر : كأنك قد شاركتنى فى النَّظَر (يريد الإشراف على شئون الوقف) فرد عليه الشيخ بقوله : لا ، بل شاركتك فى العَمَى . فاستحيا الناظر ، ولم يعزله ^(٤) .

* مر إبراهيم المويلحى — وهو راكب حماره — بـدكان الشيخ حسن مدكور بالحزاوى ، فحياه ، فرد الشيخ فى غير مبالاة ، فأَسْرَها إبراهيم فى نفسه ، ومضى فى طريقه ، ثم عاد بعد قليل ، ونادى الشيخ ، وطلب منه أن يريه ما عنده من فناجين القهوة ، فقام الشيخ ، وعرض عليه نماذجها ، والمويلحى يقلبها بين يديه ، ويسأله عن ثمن كل صنف . ثم سأله عن واحد منها ، فقال له : قرش واحد ،

(١) محاضرات الأدباء (٢) البيان والتبيين ٢/٢٣١ (٣) الأذكياء ١٠٢

(٤) نكت الهميان ٦٨

فرى به المويلحى على الأرض ، فانكسر . فأخرج من جيبه قرشا ، وقدمه إلى الشيخ قائلا : الذى يقيمه قرش ، ويقعده قرش ، لا يجوز له أن يتعالى على الناس^(١) .

* كان حافظ إبراهيم ومحمد البابلي يمشيان يوما بمحلوان ومعهما صديقهما أحمد جاد ، وكان مشهورا بالنكتة المصرية البلدية . فأنشد حافظ بيتا لأبي تمام ، وأنشد البابلي بيتا لشاعر آخر ، وأحمد جاد يسير بينهما مطرقا . فقال له حافظ : مالك تمشى بيننا ساكتا كالجمار ؟ فقال أحمد جاد : لا ، بل أنا — أكرمك الله — كالعريش^(٢) .

* جاء فلاح مصرى إلى مدينة راكباً حماره ، فر بسوق ازدحم فيها الناس ازدحاما ضيق على الحمار طريقه ، فضربه الفلاح ضرباً مُبرِّحاً . فتصدى له بعض المارة وزجره قائلا : ألا تشفق على هذا الحيوان يا حمار ؟ فقال الفلاح : لو كنت أعلم أن الحمارى قرابة بالمدينة ما ضربته . فأرجو منك العفو .

(١) فلاسفة وصعاليك (مخطوط) .

(٢) العريش : الحشبة الطويلة التى يجير منها الحمار أو البغل أو الحصان العربية وكثيرا ما يكون بين حصانين أو حمارين .

القلب والعكس

١ - حينما نستمع إلى أستاذ يحاضر لانهضك ، ولا يجوز بخاطرنا أن نهضك . وحينما نصغى إلى متدين يتحدث فى الدين والأخلاق لانهضر بعيل إلى الهضك . وكذلك نسمع والداينصح طفله فلا نهضك .

لكننا نهضك إذا انقلب النظر ، وانعكس الأمر ، ورأينا طالبا يحاكي أستاذه ، وسمعنا فاسدا ينصح برعاية الأخلاق ، ورأينا طفلا يقف من أيمه موقف الناصح .

وكذلك نهضك إذ نرى شخصا يريد أن يداعب آخر ، فيحفر له حفرة فى طريقه وينعطىها ليوفمه فيها ، فإذا بحافرها هو الذى يقم فيها . ونهضك من جحا أو غيره إذ أراد أن يخدع غيره فانهخدع هو ، ونهضك من كل شخص وقع فى ورطة كان هو المديّر لها ، ولكنه غلط فوقم فيها . وإذا فإن تغيير المظهر إلى نقيضه ، أو قلب الجملة أو الفكرة لتؤدى معنى آخر ، باعث من بواعث الهضك .

ذلك بأننا إذ نمبر عن الفكرة بالألفاظ التى تلائمها ، وبالأسلوب الذى يوائمها ، نضمها فى غلافها الطبيعى ، فلا نهضك .

أما إذا رتبنا مفردات الجملة ترتيبا آخر يجعلها تفصح عن معنى آخر ، وبمقلها إلى فكرة أخرى مغايرة للفكرة الأولى ، فإنها نهضك .

وسبب ذلك أننا ندرك بطبعنا التعبير الطبيعى ، ثم نسمع التعبير المقلوب أو التعبير القالب ، فنعقد موازنة سريعة ندرك منها الانقلاب والانعكاس ، فننهضك . يستوى فى ذلك أمران :

الأول أن ننقل التعبير من تصويره لمنظر رائع إلى تصويره لمنظر مهين تافه ،
أى أننا ننزله من مستواه العالى إلى مستوى هابط .

الثانى أن ترتفع بالتعبير من تصويره لمنظر حقير إلى تصويره لمنظر عظيم .
وكثيرا ما نسمى هذا الضرب مبالغة ، ولكن ليست كل مبالغة مضحكة ،
وإنما تضحك المبالغة إذا تجاوزت الحد ، وكان الغرض منها التهمك ، أو كانت
بطبيعتها باعثة على التهمك ، كأن يوصف الموقف المحجل ، أو الحرفة الخسيسة ، أو المنظر
الزرىّ بعبارات التعميم .

٢ — من هذا اللون قلب الفكرة المعروفة إلى نقيضها ، أو إلى مفارقة
عجيبة لم تكن تخطر على البال . وكثيرا ما يحدث هذا فى قلب بعض القصائد
المشهوره إلى نقيضها . أو عكس الجمل السائرة إلى ضدها ، عكسا هزليا .
فكلنا نعرف قول أبى نواس فى الغزل .

يا قرا أبرزه ماتم^١ يندب شجنوا بين أتراب
يكي فبذرى الدُرّ من زجس ويلطم الورد بعنّاب^(١)
فإذا قرأنا ما قاله ناصر الملوى :

يا قردة أبصرت فى ماتم تندب شجنوا بتخاليط
تبكى فتلقى البَـمَر من عينها وتلطم الشوك بيلوط^(٢)

إذا ما قرأنا قوله هذا ضحكنا ، لأننا نتذكر قول أبى نواس ، ونشعر بأن
هذا قلب له وعكس .

(١) ديوان أبى نواس (٢) محاضرات الأدباء ٢ / ١٨٧ .

٣ — وشبهه بهذا الضرب أن يستشهد القائل في مقام تافه حقير بكلام قيل في مقام جليل ، لا يصح أن يستشهد به إلا في الموقف الرائع .
من ذلك أن سفیان بن عُیَیْنَةَ قال : دخلت الكوفة في يوم مطير ، فإذا كنَّاس فتح مرحاضاً ، ووقف على رأس البئر وهو يقول :

بلدة طيبٌ ويوم مطير هذه روضة ، وهذا عدير

ثم قال لصاحبه : انزل . فأبى صاحبه ، فنزل وهو يقول :

لم يطيقوا أن ينزلوا فنزلنا وأخو الحرب من يطيق النزولاً^(١)

فالبيت الأول قيل في الإعجاب ببلد جميل في يوم مطير ، وقيل في الإعجاب بروضتها وبغديرها . وشتان ما بين هذا وما يراه القائل .

والبيت الثاني قيل في الحماسة ، والإسراع إلى الحرب ، حيث يجبن الأعداء وإن كانوا أبطالاً . وأين من هذا نزول القائل إلى ما نزل فيه ؟

٤ — ومنه قلب الجملة أو الفكرة ضد قائليها ، فيظهر القائل الأول مناقضاً لنفسه ، فكأنه قال غير الذي أراد أن يقوله .

حدث أبو العبر — محمد بن أحمد الهاشمي — قال : كنا نختلف وننحن أحداث إلى رجل يعلمنا الهزل ، فمكان يقول : أول ما أريد أن تتعلموه قلب الأشياء . فكنا نقول — إذا أصبح — : كيف أمسيت ؟ . وإذا أمسى : كيف أصبحت ؟ وإذا قال تعال : تتأخر إلى خلف . وكانت له أرزاق يكتبها كل سنة ، فعمل مرة كتاب أرزاقه وأنا معه . فلما فرغ من التوقيع وبق الختم قال . أتربيه ، وجئني به . فمضيت فصبيت عليه الماء فتلف . فقال : ويحك ، ما صنعت ؟ قلت : ما نحن فيه طول النهار من قلب الأشياء^(٢) .

٥ — ومنه قلب الجواب الذى يتوقعه القائل من اسامع قلبا مفاجئا لا يتوقعه .
 من ذلك أن أبا الأسود الدؤلى كان جالسا فى دهليزه ، وبين يديه رطب ،
 فجاءه رجل من الأعراب يقال له ابن أبى الحمامة ، فسلم ، ثم قال : هل أدخل ؟
 قال ابن الأسود : وراءك أوسع لك . قال الأعرابى : إن الرمضاء قد أحرقت
 رجلى . قال أبو الأسود : بل عليها ، أو اقصد الجبل فاستظل به . قال الأعرابى :
 هل عندك شيء تطعمننيه ؟ قال أبو الأسود : نأكل ونطعم عيالنا ، فإن فضل شيء
 فأنت أحق به من الكلب . قال الأعرابى : مارأيت قط ألأم منك ، أنا ابن أبى الحمامة .
 قال أبو الأسود : كنى ابن أبى طاووسة ، وألقى إليه ثلاث رطبات ، فوقعت
 إحداهن فى التراب ، فأخذها الأعرابى وجعل يمسحها بثوبه . فقال له أبو الأسود :
 دعها ، فإن الذى تمسحها منه أنظف من الذى تمسحها به . فقال الأعرابى : إنما
 كرهت أن أدعها للشيطان . قال أبو الأسود : لا والله ، ولا لجبريل وميكائيل
 تدعها ^(١) .

أُصْنَةُ أُخْرَى

* اشتبهت امرأة مُزَبَّد المدينى جرادا ، فقالت له : اشتر لى جرادا ، فإن
 مُدَّآ منه بدرهم . فقال : لو جاء الدَّجَال بزُلَّة المدينة ، وأنت ماخض بالمسيح ،
 تنتظرين أن تأكلى الحراد وتضعى الحمل ، ما اشتريته بهذا السمر ^(٢) .
 * ساوم مزبد المدينى رجلا فى نمل ، فقال صاحبها : بمشرة . فقال المدينى :
 لو كانت من جلد بقرة بنى إسرائيل ما أخذتها بأكثر من درهم . فقال الرجل :
 لو كانت دراهمك من دراهم أصحاب الكهف ما بعثها لك ^(٣) .

(١) الأغاني ١١/١٠٤

(٢) محاضرات الأدباء ١/٢٩١ . المد : مكيال يزن رطلين أو رطلا وثلاث رطل

(٣) محاضرات الأدباء ١/٢٩١

* اشترى مزبد المدينى رطباً ، فأخرج صاحب الرطب كيلة صغيرة ليكيل بها . فقال المدينى : والله لو كِلتَ بها حسنات ما قَبِلْتُهَا^(١)

* ساوم أشعب رجلاً فى قوس ، فقال الرجل : أقل ثمن لهادينار . قال أشعب : والله لو أنك إذا رميت بها طائراً فى السماء ، فوق مَشْوَياًين رغيفين ، ما اشتريتها منك بدينار أبداً^(٢) .

* قالت امرأة لأشعب : هَبْ لى خاتمك . قال : لماذا ؟ قالت : لأذكرك به . قال : اذكرينى بالمنع^(٣) .

* سأل أعرابى عبد الملك ، فقال له : اسأل الله . فقال الأعرابى : سألته فأحالى عليك . فضحك منه وأعطاه^(٤) .

* قال جحظة البرمكى ، قالبا قصيدة الفرزدق المشهورة فى مدح على ابن الحسين :

وقائلٍ قال لى : من أنت ؟ قلت له مقالَ ذى حكمةٍ وأتتْ له الحِكمُ
لستُ الذى تعرف البطحاء وطائنه والبيتُ يعرفه والحلُّ والحرمُ
أنا الذى دينه إسعافُ سائله والضُرُّ يعرفه والبؤس والعَدَمُ
أنا الذى حُبُّ أهل البيت أفقره فالعَدَلُ مُستَغْبَرُ والجور مبْتَسَمُ^(٥)

• كان عُلَيَّانُ المرورىأوى إلى دكان طحان ، ومعه عصا لا تفارقه ، وكان الصبيان قد علموا وقت مسيره إلى الدكان ، فكانوا يجتمعون ، ويعبثون به ، فإذا بلغت أذيتهم منه قال للطحان : قد حَمَى الوطيس ، وطاب اللقاء ، وأنا

(١) الإمتناع والمؤانسة ٥٦/٢

(٢) الأغانى ٩٢/١٧ والعقد الفريد ٣٢٩/٣ ومحاضرات الأدباء ٢٩١/١

(٣) الأغانى ٩١/١٧ والصناعتين ١٩ (٤) محاضرات الأدباء ٣٤٠/١

(٥) معجم الأدباء ٢٥٤/٢

على بصيرة من أمرى ، فأترى ؟ فيقول الطحان : شأنك • فيتب ، وهو يقول :
إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ثم يشد منزره ويتول :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار
ثم يتناول العصا ويشد عليهم ، ويقول :

أشد على الكتيبة لا أبالى أحسنى كان فيها أم سواها
والصبيان يهزعون ؛ فإذا أرهقهم طرح الصبيان أنفسهم ، وكشفوا عن
عوراتهم ، فيعرض عنهم بوجهه ويقول : عورة المؤمنين حصى ، لولا ذلك لثلف
عمرو بن العاص يوم صفين ^(١) . والأخذ بكلام على رضى الله عنه أولى بنا . أمرنا
ألا نتبم مؤلّيا ، ولا ندفع ^(٢) على جريح . ثم يرجع ويقول :

أنا الرجبل الضرب الذى تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقد ^(٣)
ثم يعود إلى دكان الطحان ، ويلقى عصاه ، ويقول :

فألق عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب مسافر ^(٤)

فهذه أبيات من الشعر قيلت فى مواقف تليق بها ، استشهد بها فى مواقف
لا تليق بها .

* قال ابن أبى عتيق لرجل : ما اسمك ؟ قال : وثاب .

قال : وما اسم كلبك ؟ قال : عمرو . فقال :

فلو كان من التوفيق قد أعطى أسبابا
لسمي نفسه عمرا وسمي الكلب وثابا ^(٥)

(١) إشارة إلى فرار عمرو بن العاص وكشفه عن عورته فى ذلك اليوم

(٢) لا ندفع : لا تقضى ونجهز (٣) الضرب : الشجاع الماضى . حشاش : ماض

(٤) ذوو الفكاهة ١٣٠ (٥) محاصرات الأدباء ٢٠٢/٢

* زاحم رجل أبا العيناء في الطريق ، والرجل راكب حماره . فضرب أبو العيناء على أذن الحمار . وقال : يا فتى ، قل للحمار الذى فوقك يقول للناس : افسحوا الطريق^(١) .

* وقف رجل من العامة بجوار أبي العيناء — وكان أعمى — فلما أحس به قال : من هذا ؟ قال : رجل من بني آدم . فقال أبو العيناء : مرحباً بك ، أطال الله بقاءك ، ما كنت أظن هذا النسل إلا قد انقرض^(٢) .

* قال أبو العيناء : خطبت امرأة فاستقبحتنى ، فكشيت إليها :
فإن تنفري من قبح وجهى فإنى أرب أدب لا غبى ولا قدّم
فأجابتنى : ليس لديوان الرسائل أريدك^(٣) .

* قال أبو يوسف القاضى : كنت ماراً فى طرقات الكوفة ، وإذا بمُكيّان المرور ، فلما بصرتى سلم علىّ وقال لى : أيها القاضى ، أريد أن أسألك مسألة . قلت : هات . قال : أليس الله تعالى يقول : « هُوما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » قلت بلى . قال : أفليس الله تعالى يقول : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » قلت : بلى . قال : فما نذير الكلاب ؟ قلت : لا أدرى ، فأخبرنى قال : لا ، والله لا أقول إلا بمن^(٤) من رفاق ومن من شواء ، ونصف من الفودج . فأمرت من جاء بها ، ودخلت معه مسجداً ، فأكل حتى أتى على آخرها . فقلت : هات الجواب . فأخرج من كمه حجراً ، وقال : هذا نذير الكلاب^(٥) .

* قال عثمان بن درّاج الطفيلى : مرت بنا جنازة يوماً ، ومعى ابنى ،

(١) ذووا الفكاهة ٢٣٢ (٢) المريجيم السامى ٢٢٩ (٣) نهاية الأرب ٢١/٤

أرب : زكى عاقل . قدم : ثقیل جاف

(٤) المن رطلان (٥) ذوو الفكاهة ١٣١

وفي الجنائزة امرأة تبكي ، وتقول : الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه ولا غطاء ولا وطاء ولا خبز ولا ماء . فقال ابني : يا أباي إلى بيتنا والله يذهبون ^(١) .

* حضر أعرابي مجلس قوم فتذاكروا قيام الليل ، فقيل له يا أبا أمامة ، أتقوم الليل ؟ فقال : نعم . فالوا ماذا تصنع ؟ قال : أبول وأرجع وأؤام ^(٢) .

* نزل يهودى على أعرابي فأت عنده ، فقام الأعرابي يصلى عليه ، فقال : اللهم إنه ضيف ، وحق الضيف ما فد علمت فأمنه لنا إلى أن نقضى ذمامه ، ثم شأنك والسكب ^(٣) .

* سأل أعرابي على باب فقال له صبي من الدار : بورك فيك . فقال له : قبح الله هذا الفم ، فقد تعلم الشر صغيراً ^(٤) .

* ادعى رجل النبوة ، فقيل له ما علامات نبوتك ؟ قال إني أنبئكم بما في نفوسكم . قالوا : فماد في نفوسنا ؟ قال في نفوسكم أننى كاذب ولست ببى ^(٥) .

* تنبأ رجل في أيام المأمون ، فأثى به إليه ، فقال له : أنت نبى ؟ قال : نعم . قال فما معجزتك ؟ قال : ما شئت . قال : اخرج لنا من الأرض بطيخة . قال : أمهلني ثلاثة أيام . قال المأمون : بل الساعة أريدها قال يا أمير المؤمنين ، أنصفنى ، أنت تعلم أن الله ينبئها في ثلاثة أشهر ، فلا تقبلها منى في ثلاثة أيام ؟ فصحك منه ، وعلم أنه محتمل واستتابه ووصله ^(٦) .

* اختصم رجل وامرأته إلى قاض بالبصرة ، وكانت قبيحة الوجه حسنة المنتقَب . فخدع القاضى بمظهرها ، وأنصفها من زوجها . وقال : يَغْمِد أحدكم إلى المرأة الكريمة ، فيتزوجها ، ثم يسىء إليها . ففطن الرجل إلى أن القاضى

(١) المستطرف ٢٢١/٢ (٢) المستطرف ٢١٣/٣

(٣) عيون الأخبار ٥٢/٢ (٤) محاضرات الأدباء ١/٣٤٥

(٥) نهاية الأرب ١٥/٤ والمستطرف ٢/٢٢٠

(٦) نهاية الأرب ١٥/٤ والمستطرف ٢/٢١٩

خُدع ، فقال : أصلح الله القاضي ، قد شككت في أن هذه امرأتى ، فسرّها
تُسْفِر عن وجهها . فصادف ذلك ميلا من القاضي ، فقال لها : اسفِرى
رحمك الله . فسفّرت عن وجه قبيح . فقال القاضي لما نظر إلى قبح وجهها :
قوى عليك لعنة الله ؛ كلامٌ مظلوم ، ووجهٌ ظالم^(١) .

* قدّم رجلٌ عجوزاً امرأةً إلى القاضي ، وقال : أصلح الله القاضي ، زوجتى
هذه العجوز امرأة ، فلما دخلتُ بها وجدتها عرجاء . فقالت : أصلح الله القاضي ،
زوجّته امرأة ، ولم أعلم أنه يريد أن يحج عليها ، أو يسابق بها في الحلبة ،
أو يلعب عليها بالكرة والصولجان^(٢) .

* كتب رجل إلى عشيقته رقعة في أولها : عصمنى الله وإياك بالتقوى .
فكتبت إليه في الجواب . يا غليظ الطبع ، إن استجاب الله دعاءك لم نلتق أبداً^(٣) .
* وقف أعرابى سائل على باب ، وسأل فأجابه رجل وقال : ليس هاهنا
أحد . فقال السائل : إنك أحد لو جعل الله فيك بركة^(٤) .

* عرض عمرو بن الليث عسكره ، فربّه رجل تحمته دابة مهزولة ، فقال .
أتأخذون المال ، وتسمنون به فقاح نساءكم ؟ فقال أيها الأمير ، لو نظرت إلى فقحة
امرأتى لوجدتها أهزل من كفّل دابتي ، فضحك منه وأمر بزيادة عطائه^(٥) .

* وقف سائل على باب وقال : تصدقوا علىّ ، فإنى جائع . قالوا : إلى الآن
لم نخبز . قال : فكفّ من سَوِيْق . قالوا : ليس عندنا سويق . قال :
فسرّبة من ماء ، فإنى عطشان . فقالوا : ما أئانا السَّقَاء . قال : فيسير من
دهن أجعله في رأسى . قالوا : من أين لنا دهن ؟ فقال فما قوموكم هنا ؟ قوموا
اسألوا معي^(٦) .

(١) نهاية الأرب ١٠/٤

(٢) نهاية الأرب ٢٠/٤ (٣) نهاية الأرب ٢٠/٤

(٤) نهاية الأرب ٢٣/٤ (٥) محاضرات الأدباء ١/٣٤٠ (٦) نهاية الأرب ٢٣/٤

* قال رجل لندف : لو وضعت إحدى رجليك على جبل حراء ، والأخرى على طور سيناء ، ثم أخذت قوس مُفْرَحَ تَنْدِفُ به قطن الغمام في جيوب الملائكة ، ما كنت إلا نَدَفًا^(١) .

* سمع أبو يعقوب الحريري منصور بن عمار يقول في دعائه : اللهم اغفر لأعظمنا ذنبا ، وأقسانا قلبا ، وأقربنا بالخطيئة عهداً ، وأشدنا على الدنيا حرصاً . فقال له : امرأتى طالق إن كنت دعوت إلا لإبليس^(٢) .

* تزوج رجل أعمى امرأة قبيحة ، فقالت له : رُزِقْتَ أجمل النساء ، وأنت لاتدرى . فقال لها : فأين كان البُصراء عنك قبل^(٣) ؟

* تزوج أعمى بسوداء فقالت له : لو نظرت إلى حسنى وجمالى وبياضى لازددت لى حبا . فقال لها : لو كنت كما تقولين ما تركت لى البُصراء^(٤) .

* رأى الحسن على رجل طيلسان صوف ، فقال له : أيعجبك طيلسانك هذا ؟ قال : نعم . قال : إنه كان على شاة قبلك^(٥) .

* قال رجل لآخر يبغيضه : ما اسمك ؟ قال : سَمْدٌ . فقَالَ له : على الأعداء^(٦) .

* ذكر أبو النجم أنه أوصى بته (بَرَّة) يوم زواجها بقوله :

أَوْصَيْتُ مِنْ بَرَّةٍ قَلْبًا بَرًّا بِالْكَلْبِ خَيْرًا وَبِالْحِمَاةِ شَرًّا
لِاتِسَامِي ضَرْبًا لَهَا وَزَجْرًا حَتَّى تَرَى حُلُوَ الْحَيَاةِ مُرًّا
وَإِنْ كَسَتْكَ ذَهَبًا وَدُرًّا وَالْحَيَّ عَمِيهِمْ بَشَرًا^(٧)

(١) محاضرات الأدباء ٢٨٦/١ النداف : (النجد) جيوب : جمع جيب وهو طوق القميص

(٢) المقد الفريد ٣ / ٣٣٠ (٣) نكت الهميان ٦٧

(٤) نهاية الأرب ٤ / ٢٢ والأذكياء (٥) الصناعتين ١٣٤

(٦) الصناعتين ١٤٤ (٧) ذوو الفسكاة ٢٠٥

* عارض أبو الرَّفْعَمَق (الشاعر الشامي المتوفى سنة ٣٩٩ هـ) قصيدة
المنخل اليشكرى التى فيها :

ولقد دخلت على الفتا ة الحِدر فى اليوم المطير
الكعب الحسناء تر قل فى الدمقس وفى الحرير
فقال :

إب الذين تصافعوا بالقرع فى زمن القشور
أسفوا على لأنهم حضروا ولم أك فى الحضور
لو كنتُ منهم لقبل : هل من آخذ بيد الضرير ؟
ولقد دخلت على الصدي ق البيت فى اليوم المطير
متشمرًا متبخترًا للصفع بالدلو الكبير
فأدرت حين تبادروا دُلورى فكان على المدير
يا للرجال تصافعوا فالصفع مفتاح السرور
لا تغفلوه فإنه يستل أحقاد الصدور
هو فى المجالس كالبخو ر فلا تملوا من بخور^(١)

* روى العتبى أن أبان بن عبد الحميد اللاحق صار إلى محمد بن منصور فسأله
إيصال رقعة إلى الفضل بن يحيى بن خالد فأوصلها إليه وفيها :

أنا من بغية الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو أرماع
كاتب حاسب خطيب أديب ناصح راجح على الناصح

شاعر مُفْلِقٌ أَخْفَ من الرِّدِّ شاة مما تكون تحت الجناح
لى فى النحر فطنة واتقاد أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للما م بقول منور الإفصاح
ثم أروى من ابن سيرين للشه ر وقول النسيب والأمداح
وظريف الحديث من كل فن وبصير بترهات الملاح
كم وكم قد خبأت عندى حديثا هو عند الملوك كالتفاح
فبمثلى تخلو الملوك وتلهو وتناجى فى الشكل الفداح
أَيَمَّنُ الناس طائرا يوم صيد لفسدو دعيت أو لرواح
أبصر الناس بالجوارح والخي ل وبالخرد الحسان الصباح
كل ذا قد جمعت والحمد لا ه على أننى ظريف الزاح
لست بالناسك المشمّر ثوبه ه ولا الماخن الخليع الوقاح
لودى بى الأمير أصلحه الا ه رماحا نلت حد الرماح
ما أنا واهن ولا مستكين لسوى أمر سيدى ذى السماح
لست بالضخم بأمرى ولا القد م ولا بالمجحدرد الدحاح
لحمة جمدة ووجه صبيح واتقاد كشملة الصباح
إن دعانى الأمير عاين منى شمرياً كالبلبل الصيَّاح

فدعابه الفضل وأحسن جائزته ، وأمر بلزومه ، فكان يسمى فى أبى نواس
عنده ، ويحط من قدره . فقال أبو نواس ناقضا عليه قصيدته :

أنت أولى بقلّة الحظ منى يا مسمى بالبلبل الصيَّاح

قد رأوا أنه حين غنى لديهم أخرس الصوت غير ذى إفصاح
 ثم بالريش شبه النفس بالخف مما يكون تحت الجناح
 فإذا الشَّم من شمابخ رضوى عنده خفة نوى المسباح
 لم يكن فيك من صفاتك شيء غير خلق مجحدر دحداح
 لحية نطّة ووجه قبيح واثناء عن النهى والصلاح
 فيك ما يحمل الملوك على الحر ق ويزرى بالسيد الجحاح
 فيك رتيه وفيك عجب شديد وطماح يفوق كل رطماح . .
 بارد الطرف مظلم الكذب ذوخر ق معيد الحديث كزُر الزاج
 فالذى قلتُ فيك باق صحيح والذي قلتُ ذاهب في الرياح^(١)

« تعرض أبو العبر للمتوكل ، وهو مشرف من قصره ، وقد جعل أبو العبر في رجله قلنسوتين ، وعلى رأسه خفا ، وجعل سرواله قميصا ، وقيصه سروالا . فقال المتوكل : علىَّ بهذا المثلثة . فأدخل عليه ، فقال له : أنت شارب ؟ قال : ما أنا إلا عنفقة . قال المتوكل : إني أضع الأذم في رجلك . قال : ضع في رجلي الا شهب . قال المتوكل : سأنفيك إلى فارس . قال : انفي إلى راجل . فضحك المتوكل ووصله^(٢) .

(١) ديوان أبي نوس ١٦ . القدم : انثقل . تبه : كبر . لحيه نطه : قليلة الشعر .
 (٢) دوو الفكاهة في التايغ ٢١٢ أنت شارب : أراد المتوكل أأنت سكران ؟ وقلب أبو العبر الكلمة إلى الشارب النابت على الشفة العليا ، ورد بأنه ليس شارباً وإنما هو عنفقة أى شعيرات بين الشفة السفلى والذقن . الأذم : أراد المتوكل به القيد ، وأراد به أبو العبر الفرس الأسود ، فرد بأنه يريد فرسا أشهب أى يغلب بياضه سواده ، فارس : أراد المتوكل بلاد فارس ، وأراد أبو العبر الفارس الذى يركب الحصان ، فرد بكلمة مضادة لها وهى راجل . وفي هذا كله قلب وعكس .

* عارض ذوالرّقاعتين (محمد بن عبد الواحد الملقب بصريع الدلاء ، وقتيل الفوائى) مقصورة ابن دريد المشهورة ، وهى كلها مواعظ وحكم ، فجاء بحكم هزلية مضحكة ، كقوله .

من لم يرد أن تنتقب نعاله	يَحْمِلُهَا فِي كَفِّهِ إِذَا مَشَى
ومن أراد أن يصون رِجله	فَلْيَبْسُ خَيْرُهُ مِنَ الْحَفَا
من دخلت في عينه مِسْلَةٌ	فاسأله من ساعته عن العمى
من أكل الفحَمَ تَسْوَدَّ فَمُه	وراح صحن خده مثل الدُّجى
من صَفَعَ النَّاسَ وَلَمْ يَدَعْهُمْ	أن يصفعوه فمليهم اعتدى
من ناطح الكبش تَفَجَّرَ رَأْسُهُ	وسال عن مَفْرِقِهِ شَبَهُ الدِّمَا
من طبخ الديكَ وَلَا يَذْبَحْهُ	طار من القِدْرِ إِلَى حَيْثُ يَشَا
من فاته العلم وأخطاه الغنى	فذاك والكبُّ عَلَى حَدٍّ سَوَا
من شرب المُسْهِلَ فِي فِعْلِ الدَّوَا	أطال تردادا إلى بيت الخلا
والدُّرَجُ يُلَفِّي بِاللِّشَا مَلَصَقَا	والسمرج لا يلزق إلا بالغرا ^(١)

* تغزل الشاب الظريف بهذين البيتين :

لو لم تك ابنة العنقود في فمه ما كان في خده القانى أبو لهب
تَبَّتْ يَدَا عَاذِلِي فِيهِ، وَوَجْنَتُهُ سَحَّالَةُ الْوَرْدِ لَا سَحَّالَةَ الْحَطَبِ^(٢)
وهو بذلك قلب السورة القرآنية « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ

ماله وما كسب . سَيْصُصَلَى نارا ذاتَ لَهَب . وامراته حَمَّالَة الحطب في جيدها
حبيلٌ من مسد » .

فكفى عن حمرة خده بأنه لَهَب . ودعا على عاذله في حبه بالخسارة والهلاك ،
وكان الدعاء في أصله على أبي لَهَب . وصور وجنة محبوبه حمالة للورد لاحالة
للحطب ، على عكس مافي السورة من تصوير زوجة أبي لَهَب بأنها حمالة
الحطب .

* كتب سميد بن عبد ربه إلى عمه أحمد بن محمد بن عبد ربه مؤلف كتاب
العقد الفريد ، يستزيره ليؤنسه ، فلم يجبه عمه ، وأبطأ عنه :

لما عدتُ مؤانسا وجليسا نادمتُ بقراطا وجا لينوسا^(١)
وجعلتُ كتبهما شفاءً تفرّدي وهما الشفاء لكل جرح يُوسى
ووجدت علمهما إذا حصّلتُهُ يُذَكِّي ويُنحِّي للجسوم نفوسا
فرد عليه عمه بقوله :

الفيتَ بقراطا وجالينوسا لا يا كلان ويززان جليسا
فجعلتهم دون الأقارب جنةً ورضيتَ منهم صاحبا وأنيسا
وأطن بُخلك لا يرى لك تاركا حتى تنادم بعدهم إبليس^(٢)

* كان الشيخ عامر الأنبوطي (المتوفى ١١٧٣ هـ) مولماً بقلب القصائد الجدية
إلى الهزل والطبيخ ، ولذلك كان الشيخ الشبراوي يكرمه ويكسوه ويقول له :
يا شيخ عامر لا تزقّر فصيدتي الفلانية ، وهذه جائزتك .

ومن قصائده في ذلك ألفيته في الطعام على وزن ألفية ابن مالك .

يقول عامر هو الأنبوطى أحمد رى لست بالقنوط
وأستمين بالله فى ألقيه مقاصد الأكل بها محوَرَّه
فيها صنوف الأكل والمطاعم لَذَّتْ لكل جائع وهائم
إلى أن يقول .

طعامنا الضانى لذيذ للنهم لحما وسمنا ثم خبزا فالتقم
فإنها نفيسة والأكل عَم مطاعنا إلى سناها القلب أم
ويقول .

وَأَذْصَلْ فى الْأَخْبَازِ أَنْ تُقَمَّرَا وَجَبَّزُوا التَّقْدِيدَ إِذْ لَا ضَرَا

* وفد عارض الشيخ عامر الأنبوطى القصيدة المشهورة بلامية المعجم للطفوائى ،
بقصيدة طويلة منها .

أَنَا جَرُّ الضَّانِ تَرِيقَ مِنَ الْعَلَلِ وَأَصْحَنُ الرِّزْفِهَا مِنْتَهَى أُمْلَى
أَكَلَى غَدَاءً وَأَكَلَى فى الْعِشَاءِ عَلَى حَدِّ سِوَا إِذَا اللَّحْمُ السَّمِينُ قُلَى
فِيمَ الْإِقَامَةِ بِالْأَرْيَافِ ، لَا شِبَعِى فِيهَا وَلَا نُزْهَتِى فِيهَا وَلَا جَدَلِى
فَلَا خَلِيلٌ بَدَفَعَ الْجُوعَ يَرْحَمِى وَلَا كَرِيمٌ بَلَحَمَ الضَّانَ يَسْمَحُ لى
طَالَ التَّسَلُّفُ لِلطَّعْمِ وَاشْتَمَلَتْ حَشَاشَتِى بِمِهَامِ الْبَيْتِ حِينَ قُلَى
أَرِيدُ أَكْلًا نَفِيسًا أَسْتَمِينُ بِهِ عَلَى الْعِبَادَاتِ وَالطَّلُوبِ مِنْ عَمَلِ
وَالدَّهْرِ يَفْجَعُ قَلْبِى مِنْ مَطَاعِمِهِ بِالْمَدَسِ وَالْكَشْكَ وَالْبَيْسَارِ وَالْبَصَلِ

* وقال الشيخ عامر الأنبوطى فى معارضة لامية ابن الوردى ، قصيدة منها :

اجْتَنِبْ مَطْعُومَ عَدَسٍ وَبَصَلْ فِي عِشَاءٍ فَهُوَ لِلْعَقْلِ خَبَلْ
 واحتفل بالضان إن كنت فتى
 زاكى العقل ودع عنك الكسل
 من كباب وضلوع قد زككت
 أكلها ينفي عن القلب الوجل
 وله قصائد وأزجال شتى من هذا الطراز (١) .

* كان حسين شفيق المصرى مولعاً بقلب القصائد الجدية إلى قصائد هزلية .
 لكنه نحا في هزله منحى لم يسبق إليه ، فهكم بالمساوىء الفاشية في المجتمع
 بأسلوبه الفكاهة . ومزج العامية بالفصحى ، بل كان يتصرف في بعض الكلمات
 الفصيحة أو العامية تصرفاً هو نفسه من بواعث الضحك . وقد عارض المعلقات
 كلها ، وبعض القصائد المشهورة .

على أنه كان شاعراً جزل العبارة إذا جدد .

وليس هذا البحث مجال دراسة الفكاهة عند حسين شفيق ، لأن فكاهته
 كلها بالعامية .

اللَّعِبُ بِالْمَعْنَى

هذا ضرب من الفكاهة أساسه التلاعب بالمعنى ، عن قصد . وقد يتخذ صورة التلاعب بالمعنى عن غير قصد .
وهو أنواع شتى ، منها الكناية ، والتورية ، والإجابة بغير المطلوب ، والتعريض .

الكناية

هى التعبير بجملة أو جمل يراد بها ما وراءها من المعنى المرتبط بمعناها الأصلية
١ - وقد تكون الفكاهة فيها قائمة على التعبير عن الفكرة المرادة بالفاظ تؤدى صورة مضحكة .

مثال ذلك أنه قدم رجل من فارس على صاحب له ، فسأله صاحبه : قد كنت عند الأمير ، فأى شيء ولائك ؟ قال له : ولأنى ففاه^(١) .
كنى عن أن الأمير أعرض عنه ولم يؤكده شيئاً ، ولم يقمه عاملاً على ولاية ، بقوله (ولأنى ففاه) وفى هذا التعبير تصوير مضحك ، لخيبة التكلم وانصراف الأمير عنه ، وعودته خائباً .

٢ - وقد تكون الكناية قائمة على الضحك مما فى التعبير من لف ودوران ، وتجنب للتصريح ، حيث كان يبنى عن اللف والدوران .
من أمثلة ذلك أن أبا الحارث جَمَّين كان يتغدى مع الرشيد وعيسى بن جعفر ،

(١) البيان والتبيين ٦/٤

فأتى بخوان عليه ثلاثة أرغفة ، فأكل الحارث رغيفه فملهما ، فلما فرغ منه قال :
يا غلام هاتِ فرسى . فدهش الرشيد ، وقال : مالك وملك ؟ فقال : أريد أن أركبه
إلى ذلك الرغيف الذى بين يديك . فضحك الرشيد ، وأمر له بصلة^(١) .

فالحارث بارع فى طلبه لرغيف آخر ، فى صورة بعثت دهشة الرشيد ، فلما
سأله عن السبب فى طابه فرسه فى تلك الساعة ، أحاب إجابة مفاجئة لم تكن
تدور بخلد الرشيد ، فأضحكه ، ونال ما يريد بلباقته فى كنياته ، بل نال صلة لم
يكن طلبها .

ومن هذا الضرب مارواه الجاحظ عن امرأة علمته . قال : أتتني امرأة فقالت : بى
إليك حاجة ، وأريد أن تمشى معي لتقضيها ، فشىئت معها ، حتى أتت بى إلى صائغ
يهودى ، فأشارت إلىّ وقالت : مثلُ هذا . وانصرفت .

فسألت الصائغ عن قولها ، فقال : إنها أتت إلىّ بفصّ ، وأمرتني أن أنقش
عليه صورة شيطان ، فقلت لها : ياسيدتى ، ما رأيت الشيطان . فجاءت بك .

فى هذا المثال كناية عن دمامة الجاحظ فى دهاء ومكر وحسن حيلة . لذلك
اعترف الجاحظ بأنه لم يغلب إلا مرتين ، هذه إحداها .

ومن هذا الضرب أيضا أن رجلا جلس فى جماعة أمام بيته ، فدخل عليهم رجل آخر
ثم خرج . فقال أحدهم : من هذا الذى دخل وخرج ؟ فسكت صاحب الدار . ثم أعاد عليه
السائل سؤاله ، فسكت . فلما أعاده المرة الثالثة ، قال له : هذا زوج أخت خالتي^(٢) .

فهو لم يصرح بأنه زوج أمه ، أنفة وخجلا ، فلما اضطر إلى الإجابة عبر بهذه
الجملة الملفوفة التى تؤدى المعنى نفسه .

٣ — وقد ينشأ الضحك فى الكناية عما فيها من لبافة التكلم وخداعه
للسامع ، بنوع من الغموض والإبهام .

فقد دخل رجل — كان متهما بريية — على عيسى بن موسى وعنده ابن شبرمة القاضي ، فقال له عيسى : أتعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم ، إن له يَبْتَتًا وَقَدَمًا وَشَرَفًا . فخطى عيسى سبيل الرجل .

فلما انصرف ابن شبرمة قال له أصحابه : أكنفت تعرف هذا الرجل ؟ قال : لا ، ولكنني عرفت أن له بيتا يأوى إليه ، وقدما يمشى عليها ، وَشَرَفُهُ أَذْنَاهُ وَمَنْكِبَاهُ^(١) .

والخداع هنا سببه أن عيسى فهم من كلام القاضي أنه يعرف ذلك الرجل ، وأنه يصفه بالعرفة والحسب والشرف ، لأن هذا هو مدلول كلامه . لذلك أطلق الرجل مطمئنا إلى معرفة القاضي به ، على حين أراد القاضي أن للرجل بيتا يأوى إليه ، وقدما يمشى عليها ، وأذنين ومنكبين مشرفة على جسمه .

وشبيه بهذه الحادثة أن العُمرَيَّان بن الهيثم أُتِيَ بِغَلام سكران ، فقال له : من أنت ؟ فقال :

أَنَا ابْنُ الَّذِي لَا يَنْزِلُ الدَّهْرَ قَدْرُهُ وَإِنْ زَلَّتْ يَوْمًا فَسُوفَ تَعُودُ
تَرَى النَّاسَ أَفْوَاجًا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ فَهُمْ قِيَامٌ حَوْلَهَا وَفَعُودُ
فَظْنُهُ وَلَدًا لِبَعْضِ الْأَشْرَافِ ، فَأَمَرَ بِإِطْلَاقِهِ . فَلَمَّا تَحَرَّوْا عَنْهُ عَرَفُوا أَنَّهُ
بِاقِلَاتِي^(٢) .

أَمْسَدَ أُخْرَى

* سرق رجل حمارا ، وذهب ليبيعه في السوق ، فُسْرِقَ مِنْهُ . فلما عاد قيل له : بكم بعت حمارك ؟ فقال : برأس المال^(٣) .

(١) العقد الفرید ٤٦٧/٢ (٢) العقد الفرید ٤٦٦/٢ . الباقلاقي : بائم الفول والمراد هنا الفول المدهس أو المطبوح وما يشبه الفول (٣) محاصرات الأدباء ١١١ / ٢

يريد أنه باعه بلا شيء ، أى أنه سُرِق منه

* قيل لامرأة ظريفة : أبكر أم ثيب ؟ قالت : أعوذ بالله من الكساد^(١) .

أرادت أنها ثيب ، لأن بقاءها بكرًا في نظرها دليل البوار وانصراف الناس عنها .

* قال المتوكل لجارية استعرضها : أنت بكر أم إيش ؟ قالت : أنا إيش يا أمير المؤمنين^(٢) .

أرادت بقولها (أنا إيش) مقابل قول الأمير : بكر . أى أنها غير بكر .
* قال شاعر في وصف بخيل :

مطبخ داود في مظافته أشبه شيء بعرش بلقيس
ثياب طباخه إذا أنسخت أنقى بيضا من القراطيس

* قال شاعر في بخيل حريص :

لو عَبَرَ البحرَ بأواجه في ليلة مُظلمة بارده
وكفه مملوءة خردلا ما سقطت من كفه واحده^(٣)

* وجد أبو نواس عند رجل شرابا ، وليس عنده ثقل أو طعام يأكلونه مع الشراب . فكتب أبو نواس إلى جار للرجل غنى من مضر :

قل لأبي مالك فتى مُضَرِّ مقال لا مُفَحِّم ولا حَصِير
جئناك في مَيِّت تُكفِّنه ليس من الجن ، لا ، ولا البَشِير

(٢) نهاية الأرب ٤ / ١٨

(١) نهاية الأرب ٤ / ١٨

(٣) المستطرف ١ / ١٥٩

بل هو مَيِّتٌ سَلَحَهُ خَزَفٌ^١ والجسمُ فَإِنَّ الرُّوحَ مِنْ عَكَّرَ
ليس لنا مَبَاهٍ نُكَفِّنُهُ فَكَفَّنَ الْمَيِّتَ يَا أَخَا مَضَرَ
وَأَعْجَلْ فَقَدْ مَاتَ - فاعْلَمَنَّ - ضَحَاً

وَنَحْنُ مِنْ مَوْتِهِ عَلَى حَذَرٍ
يَا لَكَ مَيِّتًا صَلَاةُ عَيْشَتِهِ عَلَيْهِ عَزْفٌ^٢ وَالنَّقَرُ بِالْوَرِّ
فَلَمَّا قَرَأَ الْمَضْرَى الشَّعْرَ أَقْبَلَ بِحِشْمِهِ وَعِلْمَانِهِ نَحْوَهُ ، فَأَقَامَ عِنْدَهُمْ يَوْمَهُ
يُنَادِمُهُمْ ، وَجَمَلَ إِلَيْهِمْ طَعَامًا شَهِيًا ، وَمَنَحَ كُلًا مِنْهُمْ خَمْسَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ^(١) .

كُنِيَ عَنْ دَنْ الْحُمْرِ الَّذِي يَرِيدُونَهُ أَنْ يَشْرَبُوهُ ، فَيَتَوَارَى فِي بَطُونِهِمْ عَلَى الْغَنَاءِ
وَالْعَزْفِ ، بِالْمَيِّتِ الَّذِي يَرِيدُونَ أَنْ يَكْفِنُوهُ ، وَقَدْ فَنَى جِسْمَهُ ، وَتَوَلَدَ رُوحُهُ مِنْ
خِلَاصَتِهِ ، وَالصَّلَاةُ الَّتِي نَحْيِيهِ هِيَ الْعَزْفُ عَلَى الْأَوْتَارِ .

* قَالَ الْأَمِينُ لِأَبِي نَوَاسٍ : هَلْ تَصْنَعُ شَعْرًا لَا فَايَةَ لَهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . وَصَنَعَ
مِنْ فُورِهِ أَرْبَعًا :

وَلَقَدْ قُلْتُ لِلْمَلِيحَةِ قَوْلِي مِنْ بَعِيدٍ لِمَنْ يَحْبُوكَ

(إشارة قُبلة)

فَأَشَارَتْ بِمَعْصَمِ ثِيَابِهَا قَالَتْ مِنْ بَعِيدٍ خِلَافَ قَوْلِي

(إشارة لا لا)

فَتَنَفَّسَتْ سَاعَةً نِمَ إِنْ قَاتُ لِلْبَغْلِ عِنْدَ ذَلِكَ

(إشارة امش)

(١) أَخْبَارُ أَبِي نَوَاسٍ لِأَبِي هَمَّانَ ١٩

فتمعجب جميع من حضر المجلس من اهتدائه وحسن تأتبه ، وأعطاه الأمين
صلة^(١)

* قال مهمل بن صدقة ليموت بن المزرع وهما يتداعبان : ضربك الله باسمك .
فقال له ابن المزرع : وأحوجك الله إلى اسم أبيك^(٢) .

* روى ، ابن المزرع أن شخصا حدثه بقوله : رأيت قبرا بالشام مكتوبا
عليه : لا يَفْتَرَنَّ أحد بالديا ، فإني ابن من كان يُطْلِقُ الريح إذا شاء ،
ويحبسها إذا شاء . وبجذائه قبر آخر مكتوب عليه : كَذَبَ اللعين ، لا يظن أحد
أنه ابن سليمان عليه السلام ، إنما هو ابن حُدداد ، كان يجمع الريح في الزُّقِّ ، ثم
ينفخ بها الحجر .

قال : فما رأيت فبرين قباهما يتشأتان^(٣) .

دعا مفنن صديقا له إلى منزله ، وأقعدته إلى العصر ولم يطعمه شيئا . فاشتد
جوعه ، ثم أخذ المغني عوده وقال : بحياتي أى صوت تشتهى أن أسمعك ؟ قال
الصديق : صوت القُلَى^(٤) .

قال مجاهد بن سليمان الشاعر المصري (المتوفى سنة ٦٧٢ ١٢٧٣هـ م) في التهمك
بالشاعر المصري الجزار :

أبا الحسين تأدّب	ما الفخر بالشعر فخر
وما تبلّلت منه	بقطرة وهو بحر
وإن أتيت بيت	وما لبيتك قدر
لم تأت بالبيت إلا	عليه للناس حكر ^(٥)

(٢) الأدكياء ١١٢

(١) العمدة ١ / ٢١٢

(٤) الأدكياء ١٠٩

(٣) وفيات الأعيان ٦ / ٥٥ ضعه مجى الدس

(٥) فوات الوفيات ٢ / ١٤٥

فكنى عن السرقة من الشعراء بأن على كل بيت من أبياته حكراً . أى أنه ليس ملكاً له .

* لاحظ محافظ رشيد أن أهلها يسهرون في اللهو والتنسكيت ، وينامون إلى وقت متأخر ، فأمر بمنع التنسكيت والسهر الطويل .

وفي الصباح قابل رجل من رشيد رجلاً يلبس جبة خضراء وعمامة حمراء ، ومركوباً أصفر ، فظهر كالبنفاء ، وتحركت النكتة في نفس الرشيدى ، لكنه خشى أن يعاقبه المحافظ ، فقال للرجل : تعال معى إلى المحافظة . وهناك قال الرشيدى للمحافظ : بإسمادة المحافظ ، انظر إلى هذا الزى ، الحق إنى كدت أنفجر فضحك المحافظ ، وقال له : قل ما تريد ، ولا عقاب عليك . فنظر الرشيدى إلى الرجل وقال له : أبوك (السَّقَّا) مات .

* قال محمد إمام العبد : رآنى أحد إخوانى ، وقد شددت عنقى برباط أسود (كرافتة) لحسب أن قيصى غير مزرر ، فطلب منى أن أشد رراره .

* سافر محمد البابلى إلى الريف ليعزى صديقاً له فى والده ، فوجد المعزى جالساً فى المآتم على الحصر ، كمادة أهل الريف . وبعد أن عزى وواسى ، وجلس القرفصاء طويلاً ، تعب من جلسة لم يتعودها . فقال لصديقه : هل المرحوم فاتكم على الحصر^(١) ؟ .

* قيل لـ محمد البابلى إن نعمان باشا الأسر — عمدة المحلة وكان ضخيم الجسم خفيف الروح — استرحم فى التربة اليوم . فصاح البابلى قائلاً : الحمد لله ، روينا بأراحة^(٢) .

انرى بالراحة تعبير عما كان يحدث من ارتفاع الماء فى الترع ، فيروى الفلاحون زروعهم بغير إدارة آلات . وهو يكنى بقوله هذا عن ارتفاع الماء فى التربة لما استرحم فيها نعمان الأسر ، لضخامته ، وفى الوقت نفسه يعرض به .

* اجتمع بعض الصبية المصريين ، وأخذ كل واحد يصف أباه بالمظمة . فقال أحدهم : أبى دائماً يَصَفِّقُ له الناس ، فقليل له : لماذا ؟ أهو ملك ؟ قال : لا . قيل له : أهو وزير ؟ قال : لا . قيل له : أهو شهير ؟ قال : لا : فرد أحدهم بقوله : إنه إذا (حرسون) فى مَقْهى .

التورية

١ — معناها تعبير الكلمة عن فكرتين منفصلتين ، إحداها قريبة الخطور بالبال ، لكنها غير مرادة ، والأخرى بعيدة الخطور بالبال ، لكنها هي المرادة . وهى تضحك إذا كان تحويلها من الفكرة غير المرادة إلى المرادة باعتماداً من بواعث الضحك . ويكثر هذا إذا كانت الفكرتان متعارضتين ، لأن اجتماعهما فى كلمة واحدة تناقض مضحك . ذلك بأن الكلمة المنطوقة تؤدى معنيين ، فكانها فى الحقيقة كلمتان متداخلتان ، بينهما خلط ، إحداها يُراد منها صوتها ، والأخرى يراد بها صوتها ومعناها . فالكلمة الأولى تحملنا على أن نفكر فى أن اللغة كَسِيتْ وظيفتها لحظة ، أو نسى المتكلم بها نفسه ، فأصابه دهول مؤقت ، ومن هنا تضحك . والتورية من أهم بواعث الضحك ، وأكثوا أنواع الفكاهة شيوعاً فى الأدب الإنجليزى The Pun وأساسها — كما فى الأدب العربى — الاتحاد فى الحروف والاختلاف فى المعنى . وقد يكون الاتحاد كاملاً وقد يكون فى أكثر الحروف .

٢ — من أمثلة التورية أن الشيخ على اللبثى رأى جارية تركية حسناء عند الخديوى ، فأعجبها حسننها ، فسأل عن اسمها ، فقليل له : اسمها عدالة . فأنشد على مسمع من الخديوى :

لدولة الترك أشكو من جور هذى الغزاة
وغاية الأمر أنى طلبت منهم عداله

فالمعنى الذى يسبق إلى الخاطر أنه يطلب منهم العدل ، بدليل شكواه من الجور .

ولكن هذا المعنى لا يريده الليثى . والمعنى البعيد الذى لا يسبق إلى الخاطر أول وهلة هو (عدالة) الجارية الحسنة ، وهو الذى يريده الليثى .

أَمْسَلَةُ أُفْرَى

* أ كل أعرابي مع أبى الأسود الدؤلى ، فرأى أبو الأسود ثَقَمَ الرجل كبيرة منكرة ، وهاله ما يصنع ، فقال له : ما اسمك ؟ قال : لقمان . قال أبو الأسود : صدق أهلك فى تسميتك ، أنت لقمان .

* حَدَّثَ أَبُو الرَّقْعَمَق (أحمد بن محمد الأنطاكي) عن نفسه ، قال : كان لى إخوان أربعة ، وكنت أبادمهم ، فجاءنى رسولهم فى يوم بارد ، ولم تكن لى كسوة تقينى البرد ، فقال لى : إخوانك يقرءون عليك السلام ، ويقولون لك : فد أصبحنا اليوم ، وذبحنا شاة سمينة ، فافترح ما نريد أن نطبخه . فكتب إليهم :

إخواننا فصدوا الصَّبوح بِسُحْرَةٍ فَأَتَى رَسُولُهُمْ إِلَى خَصِيصَا
فَالُوا : اقترح شيئاً نُجِدُّكَ لَكَ طَبْخَهُ قَالَتْ : اطبخوا لى جَبَّةً وَقِيصاً^(١)
فذهب الرسول بالرقعة ، فابث أن عاد ، ومعه أربع حلل ، وأربع صُرر ،
فى كل صرة عشرة دنائير . فلبست إحدى الخلع ، وسرت إليهم .
وقف أعرابى على قوم يسألهم فقال للأول : ما اسمك ؟ قال : مانع .

(١) اطبخوا لى جبة وقيصا . المراد اصنعوا لى . اسكه عبر بالطبخ لامشاكلة ، وعلماء البدبهم يسمون هذا مشاكلة . الصبوح : الحر التى تشرب صباحاً

وقال للثاني : ما اسمك ؟ قال : مُحَرِّز . وقال للثالث : ما اسمك ؟ قال : حافظ
قال : قبلكم الله ، ما أظن الأفعال إلا من أسمائكم ^(١) .

• قال ابن نباتة في شخص اسمه موسى :

رَأَيْتُ فِي جِلَّاقٍ غَزَالَا تَحَارُّ فِي وَصْفِهِ الْعَيُونُ
فَقُلْتُ : مَا الْاسْمُ ؟ قَالَ : مُوسَى قُلْتُ : هَذَا تُحَلِّقُ الذَّفُونُ ^(٢)
وقال في صديق له كان مولعاً بفلام اسمه علم :

لِي صَدِيقٌ يَسُوءُنِي مَا يَقَاسِي مِنَ الْأَلَمِ
كَيْفَ تَحَنَّنَى شَجُونَهُ وَهِيَ نَارٌ عَلَى عَظْمٍ ^(٣)

• كان الحسن بن عبد السلام المعروف بالجلل المصري الأكبر يمدو عَدْواً
شديداً ، فرآه صديق له فقال له : فف ، فلم يقف ، فخاف صديقه أن تكون قد نزلت به
نازلة ، فذهب إلى داره ، وطرق الباب ، فخرج إليه الجلل مستخفياً . فقال له
صديقه : مالك يا أبا عبد الله ؟ قال : أما علمت أن السُّخْرَةَ وقعت في الجمال ؟
فما الذي يُؤْمِنُنِي ألا يقال عني : هذا جل ، فأمسك ، فلا أخلص إلا
بشفاعة ؟ ^(٤) .

• مشى رجل اسمه جل مع آخر اسمه صالح جَزَرَةً ، فصادقا جلا عليه جل
من جزر . فأراد الجل أن يداعب صالحاً ، فقال له : يا أبا علي ، ما هذا الذي على
البعير ؟ قال صالح : ألا تعرفه ؟ قال الجل : لا . قال صالح : هذا أنا عليك ^(٥)
• قال الشاب الظريف في شخص اسمه علي الكَوَا فِي :

(١) الامتاع والمؤانسة ٥٧/٢ (٢) الكشكول ٢٤ جلى . دمشق الحالية
(٣) الكشكول ٢٥ (٤) دوو الفكاهة ٦٢ (٥) أراد هذا جزر على جل

اسم حبیبی وما یعانی قد شَفَلَا خاطری ولبی
قالوا : (علیؑ) فقلت : فَدَرَأَ قالوا : (کوفی) فقلت قلبی^(١)

جاءت دَلَالَةً إلى قوم فقالت لهم : عندی خاطب یکتب بالحیدر ، ویختم
بازجاج ، فرضوا به وزوجوه ، فإذا هو حجَّام^(٢)

قال أبو الحسن یحیی الجزار المصری (المتوفی سنة ١٣٦٧ هـ) فی زوجة
أیه ، وفی البیت الآخر تورية فی کلمة (سن) :

تزوج الشیخ أبی شیخةً لیس لها عقل ولا ذهنُ
لو بَرَزَتْ صورتُها فی الدُّجی ما جَسَرَتْ تنظرها الجنُّ
كانها فی فرشها رَمَّةٌ وشعرها من حولها قطن
وفائل قال لی : ما سِنَّها ؟ فقلت : ما فی فمها سِنَّ^(٣)

* محمود صفوت الساعاتی فی التورية :

قالوا : اتخذ لك خادماً • فأجبتهم أنى یكون لناظم الشعر الرفیق ؟

قالوا : إلتبس لك طیب عیش • قلت لا یرجى لرب اللفظ والمعنى الدقیق^(٤)

المعنى المتبادر من کلمة (الرفیق) العبد ، بقرينة کلمة خادم قبلها ، والمعنى
البعید المقصود هو وصف الشعر بالرفة •

كذلك کلمة (الدقیق) معناها القریب طحین الحب ، لأنهم أشاروا علیه
بطلب العیش الطیب ، ولكن المعنى المراد هو وصف اللفظ والمعنى بالدقة .

وقال محمود صفوت الساعاتی فی مرثئ اسمه لمى ، وسلك سبیل التورية

فی التهکم به :

(٢) الأذکباء ١٧٥

(١) دیوان التاب الطرف ١٩

(٤) دیوان الساعاتی ١٦٨

(٣) دیوان الوفیات ٣٢٠/٢

قولوا لمن في الحكم يطلب رشوة جاءتكم لهوة دعوة المغناط
لا بد من قول السميع لمن طفئ انظر للمعنى واتقاد شواظي^(١)
* مرَّ عبد الله فكرى بالشيخ السَّمْنِي وهو وافف في الشمس ، فقال له :
لم تقف في الشمس يا سَمْنِي ؟ أما تخشى أن تَسِيحَ ؟ فرد عليه بقوله :
لا ، إنني أقدح فكرى .

* تراكت الديون على محمد البابلي لمصارف (بنوك) عدة ، وكانت كلها حينئذ
بميدان سوارس (ميدان مصطفى كامل الآن) وضاق البابلي بكثرة مطالبتها له ،
وشكا ذلك لصديقه حافظ إبراهيم ، وتمنى لو أنها وُحِّدت ديونها في (بنك)
واحد ليكون المطالب واحداً . فقال له حافظ : الأمر سهل يا أخى ، قف في ميدان
سوارس ، وناد بأعلى صوتك : وُحِّدوه

الذِكْنة في كلمة (وُحِّدوه) جاءت من أن المعنى البعيد المراد هو الشجاعة
وطلب الإحسان ، لأن الساعِلين كثيرا ما يسألون الناس بهذه الكلمة
كان الشيخ على اللبثي من سُمَّار إسماعيل وتوفيق ، وكانت له بالقصر حجرة
خاصة . فرَّ المهردار على هذه الحجرة يوماً ، فرأى مكتباً فخماً ، وأثاثاً جميلاً ،
ورأى اللبثي جالساً أمام المكتب ، وليس له عمل في القصر ولا في الدولة . فكتب
على باب الحجرة بالطباشير : « إنما نطمعكم لوجه الله » . ومضى . ورآه اللبثي وهو
يكتب ، فقام ليرى ماذا كتب ، فلما قرأه توجه إلى حجرة المهردار ، وكتب
على بابها :

عمات سافيه من ذهب تروى رباض الجَلَنار
عاقث فيها الطور عَصِي علقث فيها المهردار
* كان محمد البابلي جالساً على مقهى يدخن النارجيلة في رمضان نهائياً ، فرَّ
عليه شيخ من أصدقائه ، فقال له : لا يليق بك أن تفطر في رمضان ، واسمك

كاسم النبي . فقال البابلي : أنا يا أخى من حزب فاطر السماوات والأرض^(١) .
 * كان البابلي فى مجلس من مجالس الطرب ، وكان المغنى يتغنى بالأغنية
 القديمة : (أهل السماح الملاح فىن أراضيهن) ؟ وجعل يكرر هذه الجملة ، ويردها
 فصاح البابلي . — وكان ذا ثروة استغفرها الدين — قائلا (فى البنك المقارى
 يا أخى)^(٢) .

المراد بأراضيهن فى الأغنية أما كنهن ومنازلهن . والمراد بها فى كلمة البابلي
 مزارعهن وأطيانهن .

* كان البابلي مسافراً مع صديق له وكان الصديق متمجلاً ، وكان بطريقةهما
 سلم ، فصعداه ، وبينما هما ينزلان رأى البابلي فتاة جميلة ، فتوقف ، وأخذ يطيل
 النظر إليها فناده صديقه : أسرع يا محمد ، انزل حتى لا يفوتنا القطار . فصاح
 البابلي : كيف أستطيع النزول ، وروحي طالعة^(٣) .

، كان محمد البابلي يمشى على شاطئ البحر بالإسكندرية ، ورأى أحد
 الباشوات خارجاً من البحر بعد الاستحمام ، وكان الباشا أسود اللون .
 فناده البابلي قائلاً : سودانى ومملح يا باشا^(٤) .

* كان الشيخ البكرى ماراً مع صديق له اسمه قاسم ، ورأى كلبة يحيط بها
 صفارها إلا واحداً منها كان بعيداً . فقال البكرى :
 هذا الجرو قاسم من إخوته . فلماذا ؟ فأجابه قاسم بقوله : لعله المكربى ياسيدى .
 يريد أنه الأكبر ، فهو قادر على البعد والانفصال .

* كان حافظ إبراهيم مع بعض أصدقائه فى مقهى ، فدخل عليهم شاب ثقيل
 كان أبوه قد خرج من المجلس . وبعد قليل انصرف الشاب . فسأل أحد الجالسين
 حافظاً : (ابن مين الثقيل ده) ؟

(١) فلاسفة وصعاليك (٢) فلاسفة وصعاليك (٣) فلاسفة وصعاليك (٤) فلاسفة وصعاليك

فأجاب حافظ : (ابن اللى آم) .

وهو يورى بكلمة (اللى آم) عن (اللثام) .

داعب عبد الحميد الديب حلاقاً بالحقى الحسينى اسمه محمد شعبان ، كان يعطف عليه ويوده ، وجاء فى دعابته قوله :

يا بـارك الله فى صافى مـودته وبارك الله فى رزق ابن شعبان
مرآته زينة للعين ساحرة موساه أفضل من موسى (ابن عمران)
وهو يريد بان عمران شيخ حلاقى القاهرة فى عصر سابق . وإدأ فى كلمة
(موسى) تورية لطيفة ، لأن المعنى القريب هو النبى موسى عليه السلام بدليل (ابن عمران)
والمعنى البعيد المراد هو آلة الخلافة التى كان يستعملها ابن عمران الحلاق .
اشتهر الأستاذ نجيب حتاتة بصنع الحلوى المعروفة بأـم على . فاقترح الأستاذ
على السباعى عليه أن يدعو إخوانه إلى مأدبة ، من أصنافها أـم على فأنشد الشاعر محمود
غنيم هذين البيتين :

فل لنجيب يا أمير الندى ويا شبيهَ البدر فى رَعه
أذكرُك عـلياً إنه مُـفرمٌ زاد به الشَّوقُ إلى أمِّه (١)

دعى أحمد رامى إلى وليمة ، فأعجبه طبق (الضامة) بنير لحم ، فأنصرف
إليه ، وترك بقية الأصناف . فقال له صديق : يا أخى كل من الأصناف الأخرى ،
فإنها أحسن ، دى ضامة كدابة .

فرد عليه رامى بقوله : انت مالك ، أنا مصدقها .

كان حسين شفيق المصرى يملق فى مجلته على بعض الحوادث تعليقات طريفة ،
فقد روت جريدة الأهرام أن (داورية) من عسكري وخفيرين قابلت صياداً

في أثناء مرورها للمحافظة على الأمن ، فاغتصبت منه مامعه من السمك ، ثم قبض على الداورية . فعلق حسين شفيق بقوله :

عند ما قبضوا على الداورية التي سرقت السمك ، ورأى المأمور العسكري ، قال له : ارم بياضك .

يقول المحقق في محضره إن الجندي الذي كان من الداورية نصفه عسكري ونصفه سمكة .

قال أحدهم لو قيل النيابة : إذا كان البوليس يسرق ، فمن يحرسنا ؟ فقال له : اسم النبي حارسك .

لما وصل العسكري الذي سرق السمك إلى غرفه التحقيق ، وكيل النيابة شواه . سألت النيابة العسكري الذي سرق السمك عن اسمه فقال : بحري بحري . عند ما دعى العسكري الذي سرق السمك إلى غرفة التحقيق دخل وعلى رقبته شال^(١) .

من أغرب ما جاءنا أن القاطرة رقم ١٥٩ بعد أن دخلت المخزن في المنيا ورفع منها الفحم كالعتاد خرجت وحدها بغير سائق ، وتجاوزت محطة المنيا إلى البرجاية ثم توقفت (الأهرام) .

علق حسين شفيق بقوله :

لما كانت القاطرة ماشية من غير فحم ولا سواق قال فلاح لآخر : جاموسة مين دي يا محمد ؟

يقال إن القاطرة ضبطت عند أحد الفلاحين وهو يديرها في الساقية .

ظهر من التحقيق في حادث فرار القاطرة من المخزن أن (حنطور) عمدة البرجاية أغراها على الهروب ليتزوجها^(٢)

(٢) أبو نواس الجديد ١٢٥

(١) أبو نواس الجديد ١٢٤

الإجابة بغير المطلوب

(أسلوب الحكيم)

ومن اللعب بالمعاني أن يُسأل الشخص عن شيء ليجيب إجابة يقتضها السؤال ، فإذا به يجيب إجابة أخرى لا يقتضها السؤال ، ولا يريد لها السائل . ومن هذا التناقض بين السؤال والجواب ، أو بين الجواب الذى يتوقعه السائل والجواب الذى نطق به المجيب قد ينشأ الضحك .

وهذا النوع يسميه البديعيون (أسلوب الحكيم) .

من أمثلته أن الخطيئة كان يعنى غمها له ، وفى يده عصا ، فمرَّ به رجل ، فقال له : يا راعى الغنم ما عندك ؟ قال : عَجْرَاءُ من سَلَم^(١) . قال : إني ضيف . فقال الخطيئة : للضيفان أعددتها^(٢) .

أراد السائل بقوله (ما عندك ؟) أن يعرف ماذا عند الراعى من طعام أو شراب . وكان الخطيئة يعلم ذلك ، لكنه أجاب بقوله : عندى عصا كثيرة العقد من خشب صلب . فأراد السائل أن ينهيه إلى أنه يريد طعاما لأنه ضيف . فتمادى الخطيئة فى صرفه عما يريد بقوله : للضيفان أعددتها .

أمثلة أخرى

* سأل خالد بن الوليد رجلا اسمه عبيد المسيح بن عمرو النمساني :

— من أين أقبلت ؟

— من صلب أبى .

— من أين خرجت ؟

(٢) البياض والبين ١٤٧/٢

(١) عجراة : كثرة العقد . السلم : شجر

- من بطن أمي .
- علام أنت ؟
- على الأرض .
- فيم أنت ؟
- في ثيابي .
- ما سنك ؟
- عَظَمٌ .
- أتعقل ؟ لا عَقَلْتَ .
- إى والله، وأقيد .
- ابن كم أنت ؟
- ابن رجل واحد .
- كم أنى عليك من الدهر ؟
- لو أتى على شيء لقتلني .
- ما تريد في مسألتك إلا غمى .
- ما أحببتك إلا عن مسألتك^(١) .
- قال الحجاج لرجل من الخوارج :
- أجمعت القرآن ؟
- أمفرقا كان فأجمعه ؟
- أنقروه ظاهرا ؟
- بل أقرؤه وأنا أنظر إليه .
- أفتحفظه ؟

(١) المان والتبب ١٤٧/٢

— أَخْشَيْتُ فِرَارَهُ فَأُحْفَظُهُ ؟

— ما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك ؟

— لعنه الله ولعنك معه .

— إناك مقتول ، فكيف تلقى الله ؟

— ألقى الله بعملى ، وتلقاه أنت بدمى^(١) .

* سأل رجل آخر : أين بلدة طره ؟ فقال له : جنوبي القاهرة . فسأله :
وأى طريق يوصل إليها ؟ فأجابه : محكمة الجنايات^(٢) .

* تقدم خادم للخدمة في بيت أحد الكبراء في مصر ، فسأله : هل سبقت
لك الخدمة في البيوت الكبيرة ؟ فأجاب : نعم يا سيدى ، إن آخر بيت خدمت
فيه كان من خمس طبقات .

* سأل الضابط بالقسم رحلا عثر في طريقه على كيس مملوء بالنقود : لماذا
لم تقدم للقسم حينما وجدته في منتصف الليلة الماضية ؟ فأجاب : كان الظلام حالكا
فلم أهتم إلى القسم . فقال له الضابط : ولماذا لم تأت به في الصباح ؟ فأجاب : لأنه
لم يكن قد بقى به قرش واحد^(٣) .

(١) البيان والتبيين ٢/ ٨ : ١

(٢) في طره السجن المشهور الذى يسجن فيه المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة

(٣) أمب دائرة ٣

التعريض

١ — نريد بالتعريض أن ينطق المتكلم بكلام لا يريد به معناه في ذاته ، وإنما يشير به إلى معنى بعيد يفهمه السامع . وليس بين المعنيين تلازم كما في الكناية ، أو دليل على المعنى القريب يخدع عن المعنى البعيد كما في التورية . وكثيراً ما يلبس التعريض ثوب الفكاهة ، لأن المتكلم سلك إلى التلويح بما يريد مسلماً فيه ظرف وحفة روح أو حيلة مضحكة .

٢ — من التعريض أن سمروبن العاص قال لمعاوية : رأيتُ البارحة في المنام كأن القيامة قد قامت ، ووضعت الموازين ، وأُحْضِرُ الناسُ للحساب ، فنظرتُ إليك ، وأنت واقف قد أُلْجَمَ المَرْقُ ، وبين يديك صحف كأمثال الجبال .

فقال معاوية : فهل رأيت شيئاً من دنائير مصر ؟ (١) عرض عمرو بذنوب معاوية ، وعرض معاوية باستغلال عمر ، لولايته على مصر وغناه منها .

٣ — الفرق بين التعريض والكناية والتورية : (أ) أما الفرق بينه وبين الكناية فهو أن الكناية قائمة على تلازم وتربط بين المعنيين ، لكن التعريض لا تلازم فيه ولا تربط ، وإنما يفهم السامع المراد الخفي من تلقاء نفسه .

(ب) وأما الفرق بينه وبين التورية فهو أن للكلمة الواحدة في التورية معنى قريباً ترجمه قرينة في الكلام ، ومعنى آخر بعيداً هو المراد ، ولا قرينة عليه . ولكن التعريض جملة ليس لها إلا معنى واحد ، يدركه السامع ، فيفهم ما وراء الكلام من بواعث .

أُسْتُؤْذِرُ أُخْرَى

* قال الأصمعي : أضفت إعرابيا ، فلما أكلنا ، قلت : يا جارية ، أطمعينا تينا . فَنَسِيَتْهُ . فقلت للأعرابي بعد ساعة : أنحسن شيئا من القرآن ؟ قال : نعم . فقلت : اقرأ . فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم . « والزيتون وطور سينين » فقلت : وأين التين ؟ قال : نسيته أنت وجاريتك^(١) .

• دخل رجل من محارب على عبد الله بن يزيد الهلالي وهو والى أرمينية ، وبالقرب منه غدير فيه ضفادع ، فقال عبد الله بن يزيد : ما تركتُنا شيوخ محارب فنام الليلة . فقال له المحاربي : أصلح الله الأمير ، أندري لم ذلك ؟ قال : ولم ؟ قال : لأنها فَقَدَتْ بُرْقَمًا لها . قال عبد الله : قبحك الله وقبح ما جئت به . أراد عبد الله بن يزيد الهلالي قول الأخطل في محارب :

تَنَقَّ - بلا شيء - شيوخ محارب

وما خَلُتْهَا كَانَتْ تَرِيشٌ وَلَا تَبْرِي^(٢)

ضفادع في ظلماء ليل تجاوبتُ فدل عليها صَوْتُهَا حَيَّةَ الْبَحْرِ
وأراد المحاربي قول الشاعر :

لكل هلالٍ من اللؤم بُرْقَعٌ ولابن يزيد برقعٌ وقيص^(٣)

* كان سنان بن مَكَمَل التَّمِيمِيّ يسائر عمر بن مُهَبَّيْرَةَ الْغَزَارِيّ يوما على بغلة . فقال له ابن هبيرة : غُضَّ من عَنَانِ يَغْلَتُكَ . فقال سنان : إنها مكتوبة^(٤) ، أصلح الله الأمير^(٥) .

(١) محاضرات الأدباء ٣٩٣/١

(٢) لا ترس ولا تعرى : لا يحميها في الحرب (٣) العقد المريد ٦٩/٢ :

(٤) مكتوبة : مقيدة (٥) العقد المريد ٦٨/٢

أراد ابن هبيرة فول جريرو في الهجاء :

ففضَّ الطرف إبك من نُمَيْرٍ فلا كُعباً بَلَفَتْ ولا كلاباً

وأراد سنان فول ابن دارة :

لا تَأْمَنَنَّ فَوَارِيّاً خَلُوتَ بِهِ عَلَى فُلُوصِكَ ، وَاكْتَبَهَا بِأَسْيَارِ^(١)

والمثالان السابقان من النوع الذى يسمَّى (اللحن) وهو كلام فيه لحن دالة واختصار وتلويح ، لأن معناه بعيد من ظاهر لفظه . لكن المخاطب الذكى يعرفه بفحواه ، وإن كان على غير وجهه .

* قال المتوكل لأبى العيناء : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك . فقال أبو العيناء : « إن الذين أُجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون »^(٢) .

* وعد أحمد بن المدبر أبى العيناء أن يعطيه بغلاً . ثم مضت أيام ، ولقيه فى الطريق ماشياً ، فقال له : كيف أصبحت يا أبى العيناء ؟ قال : بلا بغل . فضحك وبعث به إليه^(٣) .

* دعى ابن حجاج إلى طعام مع جماعة من الصيغان ، فتأخر عنهم الطعام ، فقال لصاحب الدعوه :

يا ذاهباً فى داره آتياً من غير ما معنى ولا فائدة

قد جُنَّ أضيافك من جوعهم فأقرأ عليهم سورة المائدة^(٤)

* لما قبض على محمد بن عبد الملك الزيات الوزير ، هرب الجاحظ ، فقيل له :

(١) القلوص : الماقة الفتية . اكتبها بأسيار : ويدها بأسيار من حلد .

(٢) نكت الهميان ٢٦٧ (٣) دوو الفكاهة ٢٣١

(٤) محاصر الأدياء ٣٩٣/١ والمستطرف ١٥٩/١

لم هربت ؟ فقال : خفت أن أكون ثانى اثنين إذ هما فى التَّنَّسُّور . يشير إلى القرن الذى قتل فيه ابن الزيات^(١) .

* اعتاد محمد إمام العبد أن يقول فى مجالسه عن حافظ إبراهيم : من هو حافظ ؟ أنا أخلق فى اليوم عشرين حافظا . وعلم حافظ بذلك . ثم ذهب إليه إمام العبد ليتسلف نقودا ، فقال له حافظ : والله يا مولاي كما خلقتنى .

التَّحْكِيمُ السِّيَاسِي

يُخْطِئُ الملوِكُ والحكامُ المُستبدونُ حينما يُخالونُ أن سطوتهم وسيطاً عذابهم ، و رهبة سجونهم ، وغيرها من صنوف النكال كفيْلَةٌ بأن تُجَنَّبَهم جراحات الألسنة ، ووُخْزات النوادر ، وَلَهَبَ الأَنفاسُ المُكبوتة . ذلك بأن الناس إذ يشعرون بالضغط النازل عليهم ، ويجدون أنفسهم في ضيقٍ وفي تضيقٍ ، يُؤثرون المِوَادعة في الظاهر ، أو كثيراً ما يؤثرونها . لكنهم لا بد أن يَتَنَفَّسُوا . ولهذا التنفُّسُ سبيلٌ شتى . منها الأفاويل ، ومنها الأفاصيص الخرافية ، ومنها التَّهْكِيمُ والتَّعْدِرُ .

ولعل كثيراً من النوادر والفكاهات التي تصور الحالة السياسية في العصور المختلفة قد كساها المتفكِّهون رداء المبالغة ، ليجسِّموا الصورة ، وَيَفْتَنُوا فيها ، فيعظم وقعها .

ولعلهم في بعض الأحيان قد اخترعوا أحداثاً ، وتندروا بها ، لكنهم في اختراعهم هذا مَهَرَةٌ ، لأنهم طابَقوا الواقع ، وشابهوا الحقيقة ، وولَدُوا من الوقائع المشاهدة أمثالا لها ونظائر .

ولهذا التَّهْكِيمُ السِّيَاسِي أثرٌ مزدوج ، فهو تنفُّسٌ عن المظلومين المُكبوتين ، وراحة لأنفسهم وِجَام ، وملهاة ومسلاة ، وثأر وقصاص . وهو رَدْعٌ للظالمين ، وعظة لغيرهم وتأديب .

على أنه سَجِيلٌ للحالة السياسية ، وسنفرد لهذا بحثاً خاصاً في (دلالات الفكاهة) .

أُمُوت

* عزل الوليد بن عبد الملك بن مروان أخاه عبد الملك من ولاية مصر، وولى مكانه قُرّة بن شريك العمسي سنة ٩٠ هـ إلى سنة ٩٩ هـ . وكان ظلوما عسوطا ماجنا ، فكُتِبَ شاعر مصري إلى الوليد :

عَجِبْتُ مَا عَجِبْتُ حِينَ أَتَانَا أَنْ مَدَّ أُمْرَتَ قُرَّةَ بْنَ شَرِيكَ
وَعَزَلْتَ الْفَتَى الْمَبَارَكَ عَنَّا ثُمَّ قَيَّلْتَ فِيهِ رَأَى أَيْيِكَ^(١)

فالشاعر يتهكم بالخليفة الوليد بن عبد الملك ، لأنه عزل واليا صالحا كان قد ولاه أبوه وجرت به رضى عنه ، وولى بدله واليا فاسدا ، فلم يكفل للناس صلاح الوالى ، ولم يُبْنَقْ على عمل صالح لأبيه .

استوزر الخليفة المهدي يعقوب بن داود سنة ٦٣ هـ وكان بارعا ، فغلب على أمور المهدي كلها ، ورين له الإيفاق ، فأنفق في الشرب واللذات والغناء ، وانفرد يعقوب بتدبير شؤون الخلافة . فقال بشار بن برد :

بَنَى أَمِيَّةٌ هُبُّوا طَالَ نَوْمُكُمْ إِنْ الْخَلِيفَةُ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ
ضَاعَتْ خِلَافَتُكُمْ يَاقَوْمَ فَالْتَمِسُوا خَلِيفَةَ اللَّهِ بَيْنَ الرُّقَى وَالْمُودِ^(٢)

فهو يهيب بالأمويين أن يسنيقظوا ليستعيدوا خلافتهم التى سلبها العباسيون ، لأن الظروف مواتية ، والخلافة العباسية فى ضعف ، إذ أن الخليفة الحقيقى هو الوزير يعقوب بن داود ، أما الخليفة الرسمى الاسمى فى شغل عن الخلافة باللهو والشراب . ولم يكن بشار مواليا للأمويين ، وإنما أراد أن يصل بتهكمه إلى أشد المواضع حساسية فى بنى العباس ، وأعنفها إيلا ما لهم .

(١) الجوم الزاهرة ٢٤٤/١ وحسن المحاضرة ٧/٢ ماب : أضحت

(٢) وفات الأعيان ٣٧/٢

* عرف المسلمون الوزارة بمعناها أول ما عرفوها في عهد السفاح ، إذ كان أبو سلامة حفص سليمان الخلال أول من سمى وزيرا في عهده (١٣٢ هـ) وكان يقال له وزير آل محمد . ثم إن السفاح بعث إليه من قتله في السنة نفسها .

وتتابع الوزراء بعد ذلك ، وكثر فيهم القتل والعزل والتجريد من الأموال ، كما حدث مثل هذا لكثير من الكتاب والقواد مثل أبي مسلم الخراساني . فقد تولى أبو أيوب المورياني الوزارة لأبي جعفر المنصور ، ثم قتله سنة ١٥٤ هـ . واستوزر المهدي يعقوب بن داود ثم غضب عليه وسجنه ، وسجن أعوانه الذين ولاهم . وكان الربيع وزيرا للمهدي فلما تولى الهادي عزله . وكان إبراهيم ابن دكوان وزيرا للهادي فلما تولى الرشيد عزله . واحتار الرشيد للوزارة يحيى ابن خالد البرمكي ، ثم سكب البرامكة .

ولما صعدت الخلافة كان الصراع عنيفا بين الوزراء والمسنورين والقواد الكبار . لهذا لم تكن الوزارة منصبا يطمأن إليه ، وصحت الحكمة القائلة إن صاحب السلطان كرا ك الحجر ، إن أمن العرق لا يأمن الفرق (١) . لهذا عجب أحمد بن إسحاق بن المهلول إذ رأى ابن الفرات يتولى الوزارة مرة تامة ، وأنذره بأنها الأخيرة ، في قوله :

فل لهذا الوزير قولٌ محقٌّ بَشَّه النَّصْحَ أَيَّامًا إِنْ شِثْ
فَدِ تَقَلَّدَتْهُمُ ثَلَاثًا ثَلَاثًا وَطَلَّاقُ الْبَتَاتِ عِنْدَ الثَّلَاثِ

وكان الأمر على ما قاله ، فإن ابن الفرات قتل بعد الوزارة الثالثة في محبسه (٢) . ولما وُلِّيَ الوزارة محمد بن أبي العباس بن مقله صاحب الخط المنسوب إليه قال
نقطويه النحوي :

ذَا أَبْصَرْتُ فِي رِخْلَيْهِ وَزِيْرًا فَقُلْ : أَتُبَشِّرُ بِقَاصِمَةِ الظُّهُورِ

أَيَّامِ طُغُولٍ فِي بَلَاءٍ وَأَيَّامِ قِصَارٍ فِي سُرُورِ^(١)

وقد تولى ابن مقلة الوزارة مرات في عهود المقتدر بالله والظاهر بالله والراضى بالله ابتداء من سنة ٣١٦ هـ إلى ٣٢٨ هـ وكان بكرم ويعظم نفوذه ثم يعزل ، وفي عهد الراضى حبس وطرد وقطعت يمينه ، ثم عاد إلى الوزارة . وحسب الناس أنه لن يعزل هذه المرة ، فقال بعضهم :

وَقَالُوا: الْعِزْلُ لِلْوُزَرَاءِ حَيْضٌ^٢ لِحَاجَةِ اللَّهِ مِنْ أَمْرِ بَغِيضٍ

وَلَكِنْ الْوَزِيرَ أَبَا عَلِيٍّ مِنَ اللَّائِي يُثْنِي مِنَ الْحَيْضِ^(١)

أى أن عزل الوزراء أمر محتوم لابد أن يحدث ، ولا مندوحة من وقوعه في فترات متقاربة ، ولكن ابن مقلة مطمئن إلى بقاءه في الوزارة ، لا يخشى العزل ، فكأنه امرأة أدركها سن اليأس .

* تهكم الشاعر بنصير الدين العَلَمَقَمِيُّ الذى وزر للمستعصم البويهى سنة ٦٤٠ هـ ، لأنه كان وزيرا مشئوما على الخليفة وعلى بنى العباس والمسلمين جميعا ، فإنه مالا التتار ، فقدموا إلى بغداد واستولوا عليها ، وقتلوا الخليفة . قال فيه الشاعر :

يَا فِرْقَةَ الْإِسْلَامِ نُوحُوا وَانْدُبُوا أَسْفَا عَلَى مَا حَلَّ^٣ بِالْمُسْتَعْصَمِ

كَسَتْ^٢ الْوِزَارَةَ كَانَ قَبْلَ زَمَانِهِ لَابْنِ الْفُرَاتِ فِصَارَ لَابْنِ الْعَلَمَقَمِيِّ^(٢)

والبراعة هنا في قوله (ابن الفرات) و (ابن العلقمى) لأن المفارقة الساخرة واضحة بين الاسمين وبين المسمَّيَّين .

(٢) حسن المحاصرة ١٢٩/٢

(١) وميات الأعيان ٨١/٢

(٣) حسن المحاصرة ١٢٩/٢

فكلمة الفرات توحى بالمذوبة والصفاء والطيب . وكلمة الملقمى توحى بالمرارة والبغضاء والشر والنفور .

وهو يريد بابن الفرات على بن محمد بن موسى بن الفرات الوزير الأديب الجواد الداهية ، الذى اتصل بالمعتضد ، وتولى الوزارة للمعتضد ثلاث مرات ، وقتل سنة ٣١٢ هـ^(١) ويريد بابن الملقمى الوزير المشؤوم الذى كان سبباً فى نكبة المسلمين ونحزب بغداد .

* تهكم ابن عُنفين (المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ١٢٣٢ م) بالملك العادل الأيوبي لبخله على الأدباء ، فى قوله :

إن سلطاننا الذى زنجيه واسع المال ضيق الإنفاق
هو سيفٌ كما يقال ولكن قاطعٌ للرسم والأرزاق^(٢)

* أسر المصريون ملك فرنسا لويس التاسع فى عهد توران شاه سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) وحبسوه فى دار نجر الدين بن لقمان بالمنصورة ، وبقي مدة ، ثم أطلقوه بعد تسليم دمياط للمسلمين ، ورحل إلى بلاده . فلما سمع المسلمون بتأهيه بعد سنين للحرب ثانية قال جمال الدين بن مطروح الشاعر المصرى :

فل للفرسيس إذا جئته مقال حق من قَتُولِ فصيح
أجرك الله على ما جرى من قَتْلِ عُبَّادِ يسوع المسيح
أنت مصرًا تبتغى ملكها تزعم أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحينُ إلى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح
رُحنت وأصحابك أوردتهم بسوء أفعالك بطن الضريح

خمسون ألفا لا يُرى منهم إلا قليل ، أو أسير جريح
 وفقك الله لأمثالها لعل عيسى منكم يستريح
 إن كان (بابكم) بذأ راضيا ورب عش قد أتى من نصيح
 وفل لهم إن أضمرنا عودة لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
 دار ابن لقمان على حالها والقيد باقٍ والطواشي صبيح^(١)

تولى الوراثة في عهد المهاليك هبة الله بن صاعد الفائرى ، وكان بصرا نيا
 فأسلم ، فأحدث مكوسا ومظالم كثيرة ، على نحو ما كانت في أيام الفاطميين
 ووزرائهم من النصارى والرافضة . وقد كان السلطان صلاح الدين الأيوى أبطاءها ،
 فأعادها هبة الله صاعد . وقال فيه بعضهم :

لعم الله ساعدا وأباه وصاعدا
 وبنيه فنارلا واحدا ثم واحدا

وقد قتل هبة الله سنة ٦٥٥ هـ^(٢)

* تهكموا بالأطفال الذين يولون الملك ، فقد مات الملك الناصر سنة ٧٤١ هـ
 (١٣٥٩ م) وأقيم بعده ابنه سيف الدين ولقب بالملك المنصور ، فأقام بالملك أفل
 من شهرين ، وخلع ، ونفى ، ثم قتل . وأقيم بعده أخوه علاء الدين كنجك
 ولقب الملك الأشرف ، وعمره أفل من ست سنين . وقال بعض الشعراء :
 سلطاننا اليوم طافل والأكابر فى خلف وبينهم الشيطان قد نرعا
 فكيف يطمع من تمشاه مظلمة

أن ينلغ السؤل والسلطان ما بلفا^(٣)؟

(١) فوات الوفيات ٨٤/١ وديوان ابن مطروح ١٨٠ والنجوم الزاهرة ٦/٣٦٩

(٢) حسن المحاضرة ٢/٨٦

(٣) حسن المحاضرة ٢/١٣٨

* فُقِلَ يَلْبُغًا أُنَابِكُ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الْأَيُّوبِي (رئيس حرس الملك) (سنة ٧٦٨ هـ ١٣٦٦ م) وكان ساكنا بقلعة الكيش، والذين قتلوه هم مماليكهم فقال بعض الشعراء :

بَدَا شَقًا يَلْبُغًا وَعَدَتْ رَعْدَاهُ فِي سُفُنٍ إِلَيْهِ
وَالْكَبْشُ لَمْ يَفِدِهِ وَأَضَحَتْ تَفْوَحُ غَرْبَاهُ عَلَيْهِ ^(١)

ثم أقيم الجاني اليوسفي أُنَابِكُ بدلَه ، وهو زوج أم الأشرف ، فمات حينما تولى ، فقال شهاب الدين السعدي متفائلا بموتها ، وبموت زوجها :

فِي مَسْتَهْلِ الْعَشْرِ مِنْ دِي حِجَّةٍ كَانَتْ صَبِيحَةَ مَوْتِ أُمِ الْأَشْرَفِ
فَاللَّهُ يَرْحَمُهَا وَيُعْظِمُ أَجْرَهُ وَيَكُونُ فِي عَاشُورِ مَوْتِ الْيُوسُفِيِّ
وَمَنْ الْغَرِيبُ أَنْ الدَّعْوَةَ اسْتَجِيبَتْ ، فَقَتَلَ الْحَائِي الْيُوسُفِي فِي الثَّامِنِ مِنَ الْحَرَمِ
وَهُوَ يَحَارِبُ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ^(٢) .

* تَهَكَّمَ أَبُو الْحَسَنِ يُحْيَى الْجَزَارِيُّ الْمَصْرِيُّ بِالْمَالِيكِ (٧٦٩ هـ — ١٣٦٧ م) الذين كانوا يحكمون مصر ، ولا يفهمون الأدب بقوله :

وَكَمْ قَابِلَتْ تُرْكِيًّا بِمَدْحِي وَكَانَ لَمَّا أَحَاوَلَ مِنْهُ يَحْنَقُ
وَيَلْطُمُنِي إِذَا مَا قَلَّتْ أَلْطِنُ وَبَرَّ مُقْنَى إِذَا مَا قَلَّتْ بَرَمَقُ
وَتَسْقُطُ حَرَمَتِي أَبَدًا لَدَيْهِ فَلَوْ أَنِّي عَطَسْتُ لَقَالَ يَشْمَقُ ^(٣)

(١) حسن المحاضرة ٢/ ٨٨ (٢) المرجع السابق

(٣) فوات الوفيات ٢/ ٣١٩ أطنن : كلمة تركية أصلها ألبن ومعناها ذهب خالص ، أى أنه يلطمه إذا ما ظاب منه عطاء ومالا . يرمى : أصلها التركي يرمك ومن معانها الإتيان وسوء المكافأة . يشمق : أصلها التركي يشمك ومعناها غط ووجهك .

والسخرية هنا واضحة في وصف الحكام الأتراك بالغباء والجهل بجمال الأدب ، فالتركي يفتاظ حينما يُمدح ، لأنه لا يفرق بين المدح والهجاء . وإذا ما طلب منه الشاعر عطاء لطمه ، وهنا جناس بين (يلطم) و (أظن) وبراعة في الجمع بين كلمة عربية وأخرى تركية ومعناها يكاد يكون متضادا . وإذا ما شكّا الشاعر من سوء المكافأة نظر التركي إليه في غضب وحنق ، وهنا تلاعب بكلمة عربية (يرمق) وأخرى تركية (يرمق) وجناس بينهما . ثم إذا ما عطس الشاعر لم يشتمه التركي كما اعتاد المسلمون ، وإنما لآلمه وأمره أن يغطي فيه .

* فامسى المصريون كثيرا من فسوة الحكم التركي وغلطة الأتراك في تصريف الشئون ، وجمع الأموال العامة في مصر .

وكان المصريون يَمَجَّبون من سعاليك الأتراك الذين يعيشون على خيرات مصر والمصريين ، ولكمهم يتمجرفون ويتمالون عليهم . وكثيرا ما تهكم المصريون بهم تهكما دالا على البصيرة والفهم وتصوير دخائل نفوسهم ونفوس الأتراك .

قالوا إن محمد أغا كان يتسول ، وكان يقرع الأبواب ، فيقال له : مَنْ ؟ فيقول : هات حسنة لسيدك محمد أغا .

وفالوا : إن أحد الأتراك فقد نفوذه وسلطانه ، فجلس على فارعة الطريق ، وقد ملأ بمض القلّل بالماء ليشرّب منها المارة . وكلما رفع أحد قلة ليشرّب منها ، قال له في لهجة الأمر : اترك هذه القلة ، واشرب من الأخرى .

وكذلك تهكم أحمد فارس الشدياق (المتوفى ١٨٨٧) بالإفرنج الذين يهبطون مصر فقراء ثم يفتنون ويستكبرون . قال في كتابه (الساق على الساق) : ومن ذلك أن (البرنيطة) فيها (في مصر) تَنَمِي وتَمْظُم وتَفْخُم ، وتسع وتطول . وتَمْرُض وتَمْمُق ، فإذا رأيتها على رأس لابسها حسبها

شَوْنُهُ^(١) . وكثيرا ما كنت أتعجب من ذلك وأقول : كيف صحَّ في الإمكان أن مثل هذه الرموس الدميمة ، الضئيلة الذميمة ، الخسيسة اللثيمة ، تُقَلُّ هذه البرانيط المسكَّرمة ؟ وكيف أنماها هواء مصر ، وكبرها إلى هذا المقدار ؟ وقد كانت في بلادها لا تساوى قارورة الفَرَّاش ، ولا توازن منقار الفَرَّاش . وكيف كانت هناك كالتثرب ، فأصبحت كالتبر ؟ يا هواء مصر ، يا بارها ، يا ماءها ، يا تراها صَيَّرى طربوش هذا برنيطة ، وإن يكن أحسن منها عند الله والناس أفضل ، وأجل وأمثل ، وللمين أبهى وأكل . . . فلم يغن عنى النداء شيئا ، وبقي رأسي مطربشا ، وطرف دهرى مُطَرَفشا^(٢) .
ثم يقول :

ولضابط البلدة شفقة على أهلها تقرب من حد الظلم ، وذلك أنه بأمر جميع السالكين في طرقها ليلا أن يتخذوا لهم فوائيس وإن كانت الليلة مقمرة ، خيفة أن يمتروا بشيء في أسواق المدينة فيسقطوا في هوة أو جُبٍّ فتتكسر أرجلهم أو تندق أعناقهم . ومن وجد ليلا يطوف من غير ذوى البرانيط وليس بيده فانوس غلت رجله إلى يده ، ويده إلى عنقه ، وعنقه إلى جبل ، والجبل إلى وتد ، والتد إلى حائط ، والحائط إلى ناكر ونكير ، وتصلية سمير^(٣) . «

ومن التهمك ببعض أعضاء مجلس شورى القوانين ما يُروى من أن أحدهم قال لآخر بعد انفضاض الجلسة : لم أرك قد فتحت فك في هذه الجلسة ، ألم يكن في ذهنك ما تقترحه على المجلس ، كما فعلت أنا ؟ فأجابه الآخر بقوله : كيف تقول إننى لم أفتح فى ؟ وأنا كنت طول الجلسة أثناء .

تتهمك شوقى بأحمد فتجى زعلول أحد القضاة الذين حاكوا أهل دنشواى (١٩٠٦ م) ، ثم عينه كرومر وكيل وزارة الحقانية ، فأقام له بعض أصدقائه حفل

(١) مخزن غلال (٢) الطرف : العين . مطرئش : أعمى أو ضعيف البصر .

(٣) الساق على الساق ٢٠٠ — ٢٠١ .

نكريم ، ورجوا شوقي أن يشاركهم بقصيدة ، فاطلمهم ، وكلما استنجزوه وعده
أمهلهم ، وحن الموعد ، وإدابهم يتلقون من شوقي قبيل الحفلة هذه الأبيات :

إذا ما جعتم أمركم وهممتُ بتقديم شيء للوكيل نمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة ورسر وال مجلود وفيد سجين
ولا تقرأوا شعري عليه بحسبه من الشعر حكم خطه يمين
ولا تنشروه في (شبرد) بل انشروا على ملأ في دشواى حزين^(١)

٥ تم لهم شوقي بما كان يُسمى مشروع ملئر الذى تقدمت به لجنة ملئر
سنة ١٩٢٠ ليكون أساسا لمعاهدة بين مصر وإنجلترا ، وكان المشروع حماية مقنعة ،
وبين شوقي أن بريطانيا قد ازدهت بانتصارها في الحرب الكبرى ، فزادت طغيانا .
وأنها بمشروعها تريد من مصر أن تكون مملكة مستقلة استقلال اسميا ، وهى
في الحقيقة ولاية تابعة لبريطانيا ، تصل من الدول من تصله بريطانيا ، وتمادى من
تعاديه ، وتتجكم في ماء النيل على هواها ، فمصر مملكة قائمة على أنياب بريطانيا
ومخالبها :

الأيث والمالَم من شرفه في هَيْبَةِ اللَيْث إلى عربه
قَضَى بأن نننى على نابه مُلْكًا بَيْنَا وعلى خَلْبِهِ
وببلغ المجد على عَيْنِهِ وندخل العصر إلى جنبِهِ
ونصِلَ النازلَ في سَلَمِهِ ونَقْطَعِ الدَاخِلَ في حربِهِ
ونَصْرِفَ النِيلَ إلى رأيه يَنْقَسِمُهُ بِالْعَدَلِ في شِرْبِهِ
يُبِيحُ أو يَحْجُمِ على فُذْرَةٍ حقَّ الْقُرَى والنَّاسِ في عَذْبِهِ^(٢)

« تهكم حافظ إبراهيم بالإنجليز عقب فظائهم في دنشواى ، وتنكيلهم بالمصريين الأبرياء فقال :

أيها القامعون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والوداد؟
 خففوا جيشكم وناموا هنيئاً وابتغوا صيدكم وجوبوا البلاد
 وإذا أعوزتكم ذات طوق بين تلك الربا فصيدوا العباد
 إنما نحن والحمام سواء لم تناد أطواقنا الأحياد
 لا تقيدوا من أمة بقتيل صادت الشمس نفسه حين صاد^(١)
 جاء جهالنا بأمر وجئتم ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا
 أحسنوا القتل إن صنيتم بمفقر أنفسنا أصبتم أم جمادا ؟
 ليت شعري أنلك محكمة التف تيش عادت أم عهد نيرون عادا ؟^(٢)
 أكرمونا بأرضنا حيث كنتم إنما يكرم الجواد الجواد^(٣)

تهكم حسين شفيق المصرى فى قصائد عدة ، عارض بها قصائد قديمة أو حديثة مشهورة وتناول فيها نقدا اجتماعيا أو سياسيا .
 فهو فى معارضته لقصيدة السيد عبد المحسن الكاظمى التى مطلعها :

إلى كم تجبيل الطرف والدار بلفح أما شغلت عينيك بالجزع أدمع ؟
 ينقد المحاباة والوساطة والشفاعة ، ويحمل على المحسوبة التى كانت فاشية ،
 وكانت تمنح الجهلاء ، وتحرم الأكفاء . وله فى التهكم السياسى جولات ، أثر
 لها الامة العامية .

(١) لا تقيدوا من أمة : لا تنتقموا منها (٢) عرفت محاكم التفتيش بالظلم واضطهاد
 الناس ومصادرة أملاكهم وإحراقهم وقد نكلت بالعرب فى آخر أيامهم بالأندلس حتى جلوا
 عنها سنة ١٦٠٩ . نيرون : الملك الرومانى المستبد الذى ينسب إليه أنه أحرق روما وجعل يتلهى
 بمنظر الحرائق (٣) ديوان حافظ إبراهيم ٢/٢١

التحكم الاجتماعي

قلنا في التمهيد إن الفكاهة ذات وظيفة اجتماعية عظيمة الأثر ، لأنها تثير الضحك .

فهي — في رأى مكدوجل — وسيلة لأن ينفس الإنسان عن نفسه بمض ما يحمل من أثقال المجتمع ، ويسترد نشاطه ، ويقدر على أن يعيش في مجتمع لا يخلو من هموم وأكدار .

وهي — في رأى برجسون — تقويم وإصلاح ، وضرب من القصاص الخفيف ، وعون على إعداد مجتمع قوى سليم .
وإذا فالتحكم الاجتماعي يحقق فائدتين :

أولاهما أن المجتمع قلما يبرأ من عيوب يضيق بها كثير من الناس ، وهم لا يستطيعون أن يجسوا ضيقهم بين جوانحهم ، ولا يستطيعون في الوقت نفسه أن يقاوموا هذه الميوب مقاومة مادية ، لأنها ليست عدواناً عليهم ، وليست جرائم يعاقب عليها القانون ، أو هي جرائم لكن القانون عاجز عن القضاء عليها ، لحفاؤها ، أو لنفوذ أصحابها ، أو لعارض آخر ، وفي هذه الحالة لا مندوحة للساخطين من أن يُسرُّوا عن أنفسهم بالفكاهة والتحكم والضحك .

أما الفائدة الثانية فهي أن الميوب الاجتماعية نوع من التصلب والجلود والتخلف عن مجارة المجتمع ومسيرة المثل الأعلى ، ولا سبيل أجدى من الفكاهة والتحكم في تقويم اعوجاجهم ، وعلاج أمراضهم ، وتخلهم على المرونة في نفسياتهم وطباعهم وأخلاقهم وأعمالهم .

وغنى عن البيان أن التهكم الاجتماعى محتاج إلى بصيرة بأحوال المجتمع ،
ودراية بالمجتمعات الأخرى ، وملاحظة دقيقة لما فيه من عيوب ، وخيال مُسَنَّف
للموازنة بين الواقع وما يجب أن يكون ، وللمقارنة بين العيب والسلامة ، والمرض
والصحة ، والتصلب والمرونة .

ثم هو محتاج إلى القدرة البيانية الموانية للسخرية من العيب سخرية مضحكة .
وهذا التهكم يشبه الهجاء بعض الشبه ، لكنه يخالفه أكثر مما يشبهه ، لأن
الهجاء صدقٌ للحَقِّ والموجدة ، لكن التهكم صدقٌ للنقد ، ولأن هدف الهجاء
الهدم والتجريح ولا شئ غيرهما ، ولكن هدف التهكم الإصلاح والإكمال وليس
وراءهما هدف غيرهما .

وفى الحق أن التهكم لون من السخرية المتفلسفة أو الفلسفة الساخرة .
ومن هنا كان التهكم الاجتماعى صورة من نظرة صاحبه إلى الحياة وإلى
الآحياء ، وإشعاعا من مزاجه وتفكيره ، وهو فى الوقت نفسه صورة للمجتمع
الذى يتهكم به الساخر .

على أن التهكم قد يعتمد على المبالغة ، وقد يعتمد على المفارقة والجمع بين
النقيضين ، لإبراز المعالم ، وتجسيم العُشُور .

أُصْنَد

١ — تهكم بعض الأدباء بما كانوا يمانون من بؤس ، لأن حظهم عار ، أو
لأن سوق الأدب كاسدة ، فلا انملوك يسخون ، ولا الأمراء يُسَجِّعون ، ولا الأغنياء
يوجدون ، ولا الحكومات تعنى بهم ، وليس لهم كسب يدر عليهم ما يسد حاجاتهم ،
وهم فى الوقت نفسه ذوو حس مرهف ونفوس طامحة ، وخيال مشبوب . وربما

كان تصوير بعضهم لبؤسه ضرباً من البطر أو من المبالغة ، لأنهم مدّوا أعينهم إلى أكثر مما نالوا ، ووجدوا الجهال من حولهم أصحاب جاه وثناء فاستصغروا أرزاقهم بالنسبة إلى هؤلاء .

ومهما يكن من شيء ففي تهكم هؤلاء الأدباء بأنفسهم تصوير لبؤس حقيق أو بؤس موهوم .

فقد صور جحظة البرمكي (المتوفى سنة ٣٢٤ أو ٣٢٦هـ) بؤسه تصويراً ساخراً في قوله :

تَعَجَّبْتُ إِذْ رَأَيْتُنِي فَوْقَ مَكْسُورٍ مِنْ الْحَمِيرِ عَقِيرِ الظَّهْرِ مَضْرُورٍ
فَقُلْتُ : لَا تَعْجَبْنِي مِنْهُ وَمِنْ زَمَنِ أَنْخَى عَلَيَّ بِتَضْيِيقٍ وَتَقْتِيرِ
بَلْ فَاعْجَبْنِي مِنْ كَلَابٍ قَدْ خَدَمْتَهُمْ تَسْمِعِينَ عَامَا بِأَشْعَارِي وَطُنْبُورِي
وَلَمْ يَكُنْ فِي تَنَاهَى حَالِهِمْ بِهِمْ حُرٌّ يَعُودُ عَلَيَّ حَالِي بِتَغْيِيرِ^(١)
وَشَكَأُ أَبُو الْقَاسِمِ هَبَةَ اللَّهِ بْنِ الْفَضْلِ الَّذِي كَانَ يَمَانِي صِنَاعَةَ الطَّبِّ وَالْأَدَبِ ،
مِنْ سُوءِ حَالِهِ بِقَوْلِهِ :

كَلَّا قُلْتُ قَدْ تَبَغَّدَدَ قَوْمِي تَحْمَصُصُوا
لَيْسَ إِلَّا سِتْرٌ يُشَالُ ، وَبَابٌ مُجْصَصٌ
وَأَنَا الْكَلْبُ كُلُّ يَوْمٍ لِقَرْدٍ أَبْصِصُ
كَلَّا صَفَّقَ الزُّمَانُ لَهُمْ قَتُّ أَرْقُصُ
فَتَنِي أَسْمَعُ النَّدَا ، وَقَدْ جَاءَ تَخْلَصُ^(٢)

(١) معجم الأدباء ٢/٢٤٩

(٢) عيون الأنباء ١/٢٩٠ تبغدد : سكن بغداد أو صار كاهلها . تحمصص : سكن حمص أو صار كاهلها

وكذلك شكّا ابن حمد يس الصقلي بقوله :

نومى على ظهر الفراش مُنْفَصُّ^١ والليل فيه زيادة لا تَنْقُصُ
من عادات كالذئاب تذاءبت وسرّت على عجل فاتربص
جعلت دمي خمرًا تُداومُ شربَها مسترخصات منه مالا يَرُخْصُ^٢
فترى البعوض مغنيا برابة والبق تشرب والبراغث ترُقْصُ^٣

وإنك لتجد التصوير الفكّه ، والتورية الحلوة في قول نصير الدين الحماي
المصرى (المتوفى سنة ٥٧١٢ هـ - ١٣١٢ م)

ودار خراب بها قد نزلتُ ولكن نزلتُ إلى السابعة
طريقٍ من الطُّرُق مسلوكةً حَجَّجْتُهَا للورى شاسمه^(١)
ولا فرقَ ما بين أنى أكو ن بها أو أكون على القارعه^(٢)
تساورها هَفَوات السيم فتصنّفى - بلا أذن - سامعه
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكمه
إذا ما قرأتُ إذا زُلْزَلَتْ خشيتُ بأن تقرأ الواقعه

فهو يصور داره هابطة ، وطريقا عاما للناس ، فهو إذاً يقيم في الطريق لا في دار ،
ويصورها متداعية الأركان حتى إنها لا تحتل هبات السيم ، ولا تحتل أن يرفع
فيها صوته بإقامة الصلاة ، لأنها تتداعى من رديد صوته ، ويخاف أن يقرأ فيها سورة
الزلزلة فيصيبها الرعب ، فترد عليه بقرأة سورة الواقعة . وهو في فكاهته هذه خفيف
الروح ، طريف التصوير ، ماهر في مراعاة النظير بين إقامة الصلاة والسجود ، وبين
سورة الزلزلة وسورة الواقعة ، وماهر في اختيار كل كلمة لما توحى به .

(١) المحجة : الطريق الواسع (٢) القارعة : أعلى الطريق

وكذلك يجد التَّهَكُّمُ الفسك في قول أبي الحسين يحيى الجزار المصري (المتوفى سنة ١٣٦٧ م) واصفا حاله :

لستُ بَيْتِي وقد زَرَزْتُ أَبْوَإِي علىَّ حتى غسَلْتُ اليومَ أَثْوَإِي
وقد أزال الشَّتا ما كان منْ مُحَقِّقٍ دَعْنِي فمَسَتْ وَقَدْ الحامِ أَوْ لِي بِي
أنا م في الرُّبْلِ كِي يَدْفَا بِهِ جَسَدِي ما بين جَمْرِ بِهِ ، ما بين أَصْحَابِي
أو فوقِ فِدْرَهْرِيسٍ بَتْ أَحْرَسَهَا مع الكلابِ على دكانِ عَلاَّبِي
وما تراقصت الأَعْضاءُ في حَسَدِي إلا وقد صَفَّقَتْ بِالرَّدِ أُنْيَابِي^(١)

وكذلك وصف فقره وبؤسه شمس الدين بن دانيال الموصلی الذي عاش في مصر نحو نصف قرن أيام الظاهر بيبرس ، فقال :

أصبحتُ أَفْقَرَ من رِوَحٍ ويَفْتَدِي ما في يَدِي من فَاةٍ إلا يَدِي
في مَنْزِلٍ لم يَحْجُو غَيْرِي قَاعِدًا فإذا رَقَدْتُ رَقَدْتُ غَيْرِ مَمْدَدٍ
لم يَنْتَقِ فِيهِ سِوَى رَسُومِ حَصِيرَةٍ ومَخْدَةٍ كانتْ لَأُمِّ المَهْتَدِي
مُلْقَى على طَرَّاحَةٍ في حَشْوِهَا قُلٌّ كَمَثَلِ السَّمِ السَّمِ التَّبَدَدِ
والفَارُ تَرْكُضُ كالخِيُولِ تَسَابَقَتْ من كلِّ جَرْدَاءِ الأَدِيمِ وأَجْرَدِ
هذا وَلِي ثوبٌ تَرَاهُ مُرَقَّمًا من كلِّ لونٍ مِثْلَ ريشِ الِهْدِيدِ

ووصف ابن دانيال برذونه وقد أصيب بالعرج بعد العمى فقال :

قد كَمَّلَ اللهُ رِدْوَني لِمَنْقَصَةٍ وشانهِ بَعْدَ ما أَعْمَاهُ بِالْعَرَجِ

أَسِيرٌ مِثْلُ أُسْبِرٍ وَهُوَ يَمْرُجُ بِي كَأَنَّهُ مَا شَيْئاً يَنْحَطُّ مِنْ دَرَجٍ
فَإِنْ رَمَانِي عَلَى مَا فِيهِ مِنْ عَرَجٍ فَمَا عَلَيْهِ إِذَا مَامْتُ مِنْ حَرَجٍ

وما زال بعض الأدباء يتبرمون بحظهم، ويتكلمون بمجزهم عما يقدر عليه غيرهم،
فهذا محمود غنيم بصور عجزه عن شراء (الردنجوت) أو استعارته بقوله للوزير دسوقي
أباطة وقد دعاه إلى حفل :

الردنجوت يا جناب الوزير ليس يَقْوَى عَلَيْهِ جِيبُ الْفَقِيرِ
رُمْتُ أَنْ أُسْتَمِيرَهُ مِثْلَ (نَاجِي) ثُمَّ أَحْجَمْتُ خَوْفَ مَنْ الْمِيرِ
كَمْ رَأَيْتُ الْقَصِيرَ فَوْقَ طَوِيلٍ وَرَأَيْتُ الطَّوِيلَ فَوْقَ قَصِيرِ
لَسْتُ أَرْضَى بِثُوبٍ غَيْرِي وَإِنْ هُمْ نَسَجُوهُ مِنْ سُنْدُسٍ وَحَرِيرِ

فيرد عليه الدكتور إبراهيم ناجي بقوله :

وأقسم لو أن الردنجوت بِلَتَهُ وَجَادَ بِهِ مِنْ جَادٍ قَهْرًا وَسَلَفًا
لَقَلْبَتَنِي ظَهْرًا لِبَطْنٍ تَحِيرُ آ بِهِ تَحْسَبَنَّ الْوَجْهَ مَنْ عَبَّطَ قَفَا

فيرد محمود غنيم بقوله :

لَنَا طَيْبٌ يَدَاوِي النَّاسَ إِنْ مَرْضَا بِالْفَصْلِ مَا بَيْنَ أَرْوَاحٍ وَأَبْدَانِ
وَمَنْ تَجَرَّعَ كَأْسَ الْمَوْتِ مِنْ يَدِهِ فَلَنْ يَمُرَّ عَلَى جَنَّاتِ رِضْوَانِ
رَدُّ الرَنْجُوتِ مَوْبُوءًا لِمُصَاحِبِهِ فَلَمْ يَطْهَرِهِ مَحَلُولُ السَّلِيمَانِي^(١)

٢ — أكثر الأدباء الظرفاء من التهكم ببعض اللّسّى ، لأن بعض أصحابها لم يكونوا على خلق كريم ، بل كانوا منافقين يتظاهرون أمام الناس بالورع والصلاح والزّهادة ، وهم فُسّقةٌ . أو كانوا يتذرّعون باحاثهم لتُغفل الناس والتمويه عليهم ، أو كانوا جُهّالا ، لا يعلمون من شئون الدين ما يبرر لهم أن يظهروا أمام الناس بمظهر العلماء المتفكرين .

وقد سبقت أمثلة عدة من هذا في التّهكم بالعيوب الجسدية^(١) ، وسنذكر أمثلة أخرى من الشعر المصرى فى (دلالات الفكاهة) .

٣ — سخروا من المرائين المتلونين الذين لا عهد لهم .

فقد تهكم الرافعى بالمنافقين الذين يتقابون فى آرائهم وفى صلاتهم فى قوله :
وجوهك شتى ، واحد ذو بلاهة وآخر من هذى البلاهة نارد
ووجهه أرى فيه النفاق ملونا وآخر إن يبصر ذوى الفضل حاسد
ووجهه من الكيد الخبثا بارق ووجهه من اللؤم المشهر راعد
فيا عجباً تمشى بستة أوجه مع الدهر بين الناس واسمك واحد^(٢)

ومع حافظ إبراهيم على المصريين بعض عيوبهم الاجتماعية ، كتبهم فى الرأى ، وشغلهم أنفسهم بقضية زواج الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، بالسيدة صفية بنت السيد أحمد السادات شيخ السادة الوفائية ، على الرعم من رفض أبها .

حطمتُ اليراعَ فلا تعجبنى وعفتُ البيانَ فلا تعتبنى
فأنت يا مصر دار الأديب ولا أنت بالبلد الطيب
فكم غضب الناسُ من قبلنا لسلب الحقوق ولم نهض

(وكم ذا بمصر من المضحكات) كما قال فيها أبو الطيب^(١)
 أمورٌ مَرَّرْتُ وَعَيْشٌ يُمَرُّ ونحن من اللهو في ملعب
 وشعبٌ يفرُّ من الصالحات فرار السليم من الأجرب
 وصُحُفٌ تَطِينُ طنين الذباب وأحرى تَشُنُّ على الأقرب^(٢)
 وقالوا (المؤيد) في غمرة رماه بها الطمع الأشعبي
 دعاه الفرام بسنّ الكهول فجُنَّ جنونا بنت النبي
 وقالوا: لصيقٌ ببيت الرسول أغار على النسب الأنجب
 وزكّى (أبو خطوة) قولهم بحكم أحدٍ من المضرب^(٣)
 ما للهاني على داره تَسَاقَطُ كالطر الصيّب؟^(٤)
 وما للوفود على بابه تَزُفُّ النشار في موكب؟
 وما للخليفة أسدى إليه وساما يليق بصدر الأنبي^(٥)
 فيأمة ضاق عن وصفها جنانُ المفوّه والأخطب^(٦)
 تَضِيعُ الحقيقة ما بيننا ويصُلِّي البريء مع المذنب
 ويَهْضُمُ فينا الإمام الحكيم ويَكْـرَمُ فينا الجهول الغبي

(١) إشارة إلى قول المتن في هجائه لكافور

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكاء

(٢) نصب هجاءها على أبناء الوطن (٣) أبو خطوة : فاضى المحكمة الابتدائية

الشرعية الذي حكم بفسح عمد الرواح. المضرب : السيف (٤) داره : دار الشيخ علي يوسف
 الصب : التهمر

(٥) إمساوة إلى الرتب والأوسمة التي نالها الشيخ علي يوسف من الدولة العثمانية .

الأنبي : الذي يترفع عن الدنيا (٦) المفوّه : المفصيح البليغ

على الشرق منى سلام الودود وإن طأطأ الشرق للمنة رب
لقد كان خصيباً يجذب الزمان فأجذب في الزمن الخصب^(١)

٤ — نَدَّدَ بعض الأدباء بالبُله والمشعوذين الذين ينتسبون إلى التصوف
خداعاً وجهلاً ، وسخروا من الذين يشايعونهم ويزعمون فيهم البركة .
ففي سنة ١٢١٤ هـ (١٧٩٩) نودى بمعمل مولد للسيد على البكرى بالأزبكية
بالقاهرة ، وكان من البُله ويمشى بالأسواق عريان مكشوف الرأس والسوءتين
غالباً . وكان له أخ ما كر أراد أن يستغل الناس لما رآهم ميالين لأخيه ، فحجبر
عليه ومنعه الخروج من البيت ، وألبسه ثياباً ، وأعلن في الناس أنه أذن له بذلك ،
وأنه تولى القطبانية . فأقبلت النساء والرجال على زيارته والتبرك به ، وسمع ألفاظه ،
والإنصات إلى تخطيطه ، وجملوا يؤولون ما يسمعون منه بما في نفوسهم ، وأقبلوا
عليه بالهدايا والنفور ، ولا سيما نساء الأمراء والكبراء ، فراج أخوه ، وكثرت
أمواله . ثم لما مات السيد على البكرى صار الناس يجتمعون عند قبره ، ويدكرون
كراماته في قصائدهم ومدائحهم ويتصارخون ويتواجدون ويمرغون وجوههم على
أعتابه وشباكهم ، ويفرفون بأيديهم من الهواء الذي حوله ويضعونه في جيوبهم .
وفي ذلك يقول البدر الحجازي :

متى سمع الناس في دينهم بأن الفنا سنة تتبع ؟
وأن يأكل المرء أكل البعير ويرقص في الجمع حتى يقع
ولو كان طاوى الحشا جائعاً لما زاد من طرب واستمع
وقالوا سكرنا بحب الإله وما أسكر القوم إلا القيصع
كذلك الحمير إذا أخصببت تفهق من ريشها والشعب^(٢)

وَنَدَّدَ حَافِظُ إِبْرَاهِيمَ بِالْمُتَهَافِتِينَ عَلَى أَضْرَحَةِ الْأَوْلِيَاءِ ، يَزُورُونَهَا وَيَضَعُونَ
النَّقُودَ فِي صِنَادِقِهَا ، وَيَبْخُلُونَ عَلَى الْأَحْيَاءِ .
كَأَسْنَدَ كَرِّ فِي دَلَالَاتِ الْفِكَاهَةِ .

٥ — سَخَرُوا بِتِهَافَتِ بَعْضِ الشَّبَانِ وَالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ عَلَى الْبِدْعِ (الْمَوْضِعِ)
وَعَلَى كُلِّ مُسْتَحْدِثٍ مِنَ الْغَرَبِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُلَاقِمٍ لِأَحْوَالِنَا وَعَادَاتِنَا وَأَخْلَاقِنَا
فَالرَّافِعِي يَتَهَكَّمُ بِالْمَوْلَعَاتِ بِالْأَلْوَانِ وَالْأَصْبَاغِ لِيَسْتَرْنَ بِهَا أَعْمَارَهُنَّ ، وَيُؤْمَكُوهُنَّ
عَلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ :

أَلَا إِنَّمَا أُمُّ الْحَمَاقَةِ مِنْ غَدَتٍ عَمَّا أَدَّهَنَتْ تُلَقِّى عَلَى عَمْرِهَا سِتْرًا
فِيحْسِبُهَا مِنْ رَأَاهَا طِفْلَةَ الصَّبَا وَيَارْبِعُهَا كَانَتْ كَجَدَّتِهِ عُمْرًا ^(١)
وَيَتَهَكَّمُ بِالنِّسَاءِ الْمُتَنَافِسَاتِ فِي تَغْيِيرِ الْأَزْيَاءِ ، وَالْجَرَى وَرَاءَ كُلِّ بِدْعٍ مُسْتَحْدِثٍ
كَأَسْنَدَ كَرِّ فِي دَلَالَاتِ الْفِكَاهَةِ .

وإِبْرَاهِيمُ عَبْدُ الْقَادِرِ الْمَازَنِيِّ يَتَهَكَّمُ بِقِصَصِ النِّسَاءِ شَعُورَهُنَّ ، وَتَشْبِهُ الرِّجَالِ
بِهِنَّ فِي هَنْدَمَةِ الْمَلَابِسِ فِي قَوْلِهِ :

النَّاسُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ آتَقَ أَزْيَاءَهُ ، وَأَنْظَفَ ثِيَابَهُ ، وَأَبْهَجَ بَزَةَ مِنْهُمْ فِي أَيِّ عَهْدٍ مَضَى .
وَاسْتَأَذَرَ أَنَّى قَبْلَ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا كُنْتُ أَرَى (أَفَنْدِيَا) يَلْبَسُ
طَرَبُوشًا مَبْطُنًا بِالْخُوصِ وَالْحَرِيرِ ، أَوْ يَرْتَدِي غَيْرَ السَّتْرِ الْإِسْتَامْبُولِيَّةِ الْقَدِيمَةِ
ذَاتِ الزَّرَارِينِ اللَّذِينَ يَجْمَعَانِ طَرَفِي بَنِيْقَتَهَا عَلَى الرَّقْبَةِ ، وَالتَّى يَبْدُو فِيهَا الْمَرْءُ كَأَنَّهُ
مَرْبُوطٌ مِنْ عُنُقِهِ ٠٠٠٠ وَلَمْ يَكُنِ الشَّيُوخُ يَعْنُونَ — عَلَى الْأَعْمِ — بِأَحْكَامِ التَّفْصِيلِ
وَدَقَّةِ انْسِجَامِ الْقَفْطَانِ أَوْ الْجُبَّةِ عَلَى أَبْدَانِهِمْ ، أَوْ يَتَحَرَّى أَنْ يَكُونَ لَوْنُ الْحِزَامِ
مُجَاوِبًا لَصِبْغَةِ الْقَفْطَانِ ، أَوْ بَأَن تَكُونَ لَفَةُ (الشَّالِ) عَلَى طَرَبُوشِ الْعَامَّةِ بَارِعَةً

الشكل ، تخفى من الطربوش بقَدَر ، وتبدى منه بقدر . أما النساء فكان زيهن إذا برزن إلى الشوارع يصد العين عن النظر ، ولم يكن الواحد يدرى أهى آدمية تلك الملفوفة فى ملاءتها ، أم حَشْوُها زَف (١) يبعثره الريح . فالآن صارت العين تتعب من النظر إلى مجالى الذوق حتى فى الطرقات ، ودع عنك المجتمعات والسهرات ،

وصحيح أن الرجال والنساء تقاربوا . حسن ، ليس فى الإمكان أبدع مما كان . لا أدرى ممن سمعت أو أين قرأت أن الله سبحانه وتعالى وكل إلى مَلَك معين من ملائكته أن يسمح بحمده جل وعلا على أن أنعم على الرجال باللَّحى وعلى النساء بالشعر الطويل . والله وحده أعلم بصحة ذلك . ولكنى أحسب الملك الموكول إليه هذا الواجب — إن صح الخبر — قد جَدَّتْ على صوته نبرة تهكم لا ذع علينا نحن بنى آدم الفانين .

ومع ذلك لماذا؟ أمن أجل أن النساء يقصصن شعورهن ، ويتشبهن بالرجال فى بعض أرديتهن ، وأن الرجال يَحْلِقْنَ — معذرة فسيختلط الأمر بكرهى وكرهكم — يحلقون شواربهم ولحاهم ، ويتخذون من الثياب ما لا يخلص الهواء بينه وبين الجسم ، أمن أجل ذلك يكون الأمر مدعاة لنبرة سخر ترتفع مع تسبيحة الشكر ؟

نسيتُ الحرب العظمى وما أفقدت الرجال من خسارة فادحة فى مادة الرجولة لا تعوض فى الأجيال ، وكيف احتاج الأمر أن يحل النساء محل الرجال ، وأن يملأن فراغهم فى شتى الأعمال ، وكيف أُنَمَّى ذلك صفات الذكورة فيهن ، ثم انتقلت عدوى ذلك من الغرب إلى الشرق كالعادة (٢) .

وقد لبس شرق قبعة كبيرة محاكاة للإفرنج ، فسخر به الرافعى فى قوله :
 فوق رأس الثقيل قبعة الغر ب كأن لم تكن لذا الشرق أُمّه
 كوروها وقيل قد رفعتّه فى زمان ما فيه للفضل ذمّه
 ونجّ هذا الزمان أصبح لحّا نأ، ألم (يرفع) الثقيل (بجزمه) ^(١)

فهو يروى زعم الناس أن القبعة رفعت من شأن لابسها ، ويتهم ساخرا
 بهذه الرفعة المزعومة ، وينسب إلى الزمان الخطأ فى هذا الرفع ، ويتخذ من
 الاصطلاح النحوى فى الرفع والجزم تصورا لسخريته ، فيرى أن الزمان قد غلط
 فى رفع ذلك الرجل ، وكان عليه أن يرفعه (بجزمه) وهو يريد بهذه الكلمة الخداء .

٦ — وتهكموا بالأغنياء الذين يتخذون ما لهم وسيلة إلى تعالى والتعاضم .
 قال مصطفى الرافعى :

لا تظنّ الغنىّ إن يمشى ريتها ملأته عجباً فضائل نفسه
 إنما تلك نفخة الدهر هزّت من رطوباتها الجنون برأسه ^(٢)

نم امتلأت الصحف والمجلات بفكاهات عن أغنياء الحرب الذين أثروا على
 غير أمل فى الثراء ، وكانت لهم مفارقات شتى .

وكثيرا ماشارك الزجل فى هذا التهكم ، وربما كان أول زجل فى فقد شبان
 المصر هو الذى قاله الشيخ محمد النجار (المتوفى أول القرن العشرين) وسماه (زجل
 الموضه) وزى أن نذكر بعضه — وإن كان موضوعنا دائرا حول اللغة
 الفصحى — لما فيه من خطرات ذات قيمة ، ولأنه قديم فى السخرية بالتهافتين

على المحاكاة العمياء ، مثل قوله :

يا حنّيه من غير بزّ	موضه يا جيل الوز
فات السنة والمفروض	ياموضه جيلك معروض
ويروح يسكر آل ويمز	يبقى صغارلسه ومقروض

* * *

يا حنّيه من غير بزّ	يا موضه يا جيل الوز
فاضى والخماره جامعه	الجامع يوم الجمعة
تدبح في الرقبه وتحز	والغيبه في شهره وسمعه
	يا موضه

والماشق فيها مفتون	الموضه را كبه فيمتون
من كدّته ييقن ويوز	والعازب عقله مجنون
	يا موضه

والفلاح بالقوب البفته	الموضه بطربوش وزكته
دى اللبده من عرقه تنز	قولوا له الستة بسـته
	يا موضه

على قده ساكن في أوده	ماعلّش فلاح مش موده
والأجره بتحرق وتحز	وأنت ياموضه في روضه
	يا موضه

جابر جلك بعدين في الخيه	تقليدك للغير ياخيه
ووقعت في دين يبحز	وغرقت في شـبرين ميه

٧ — وتندروا بالمُمرِّين ، فقد التقى بعض الفلاحين في طريقهم بيوناني من أصحاب الربا ، في يوم قارس البرد ، واسترعى نظر أحدهم أن اليوناني لا يضع في يديه قفازه ليقبهِ البرد القارس ، وسأل أصحابه في ذلك فأجابه أحدهم : ليس الرجل في حاجة إلى قفاز ما دامت يداه في جيوبنا .

٨ — وتهكموا بميوب اجتماعية شتى ، أوردنا طرفاً منها في (التهكم بالعيوب الخلقية والنفسية) ^(١) .

(١) من ذلك أنهم نسبوا إلى طُفَّيْلِ العرائس ^(٢) أنه أوصى ابنه عبد الحميد ، وهو في علمته التي مات فيها بقوله :

«إذا دخلت عرساً فلا تلتفت تَلَفْتُ المُريب ، وتخير المجالس . فإن كان العرس كثير الزحام فلا تنظر في عيون أهل المرأة ولا في عيون أهل الرجل ، ليظن هؤلاء أنك من هؤلاء . فإن كان البواب غليظاً فابدأ به ومُرّه وانتهه من غير أن تعُفّف به . ثم أنشد ابنه :

لا تجزَعَنَّ من الغريب	ب ولا من الرجل البعيد
ادخل كأنك طابخ	بيديك مِغْرَفَةً الحديد
متدلياً فوق الطعما	م تدلّي الباز الصَّيود
لتُفِّ ما فوق الموا	تدكلها لفَّ الفهود
واطرح حياءك إغما	وجه الطفيلي من حديد
لا تلتفت نحو البقو	ل ولا إلى غُرفِ الثريد
حتى إذا جاء الطعما	م ضربت فيه كالشديد

وعليك بالفالوذجا ت فإنها عين القصيد
والعرس لا يخلو من اللبـوزينجـ الرطب الفريد
فإذا أُتيتَ به محو ت محاسن الجمام الجديد
وتنقلن على الموا ثد فعل شيطان مرريد
وإذا انتقلت عبثت بالككمك المجفف والقديد
يا رب أنت رزقتني هذا على رغم الحسود
واعلم بأنك إن قبلت نـمـتـ يا عبد الحميد^(١)

(ب) ولقد يكون التهكم ادعاء محضا ، أو مبالغة إلى حد الغلو . يتجلى هذا
في كتاب (هز القحوف على شرح قصيدة أبي شادوف) للشيخ يوسف بن محمد
الشرييني ، فقد حشد في كتابه أشتاتا من التحامل على الفلاحين كقوله :

وهمهم وشغلهم في الطَّارِ في حالة البرد ووقت الحرِّ
وإن يريدوا المزج والداعبه مثل كباشٍ قد أنت محاربه
تلق لهم حينئذ زعيقا تحسبه — يا صاحبي — نهيقا
وقوة القلب لهم طبيبه . وقلة الخير لهم ذريبه
ومشيمهم في الحر من غير وطا ونومهم في الغيط من غير غطا
ومن تراه منهم يُصلِّى فذاك لا يعرف قرص الشمس
فقيهم ذو الكُـم والعمامه إذا أتى كأنه غمامه
وإن جئنا يوما على الجفان كأنه الناطور في الغيطان

(١) الأدكياء ١٤١ . الفالودج : (البالوطة) . الاوزيج : حلوى تؤدم
بدهن الاوز . الحام : الإناء من فضة . الباز : الصقر وهو البازي أيضا

(ح) وقد تهكم مصطفى صادق الرافعي بإسراف المصريين، وبطَرهم إذا ما كثر المال في أيديهم، وبسَرَفهم إذا ما اغتنوا، وندمهم إذا افتقروا، وولعهم بالأوهام والأحلام، وسوء ما يلقى الزراع الكادحون من جزاء . قال في سنة ١٩٠٥ :

على أى دهر مصرُ لا تَتَنَدَّمُ	وفي أى دهر مصرُ لا تتظلمُ ؟
بُنُوها أَشْمَانُكَ مَدْمَةٌ	تَقْلِبُهُمُ لِلجَانِبَيْنِ فَهُمْ هُمُ
وما يتقون البؤسَ لكنهم متى	تَمَضُّ بِهِمُ أُنْيَابُهُ يَتَأَلَمُوا
وَيُظَرِّطُهُمْ عَهْدُ الرِّخَاءِ فَإِنْ مَضَى	فَسَهْلٌ عَلَيْهِمْ بَعْدُ أَنْ يَتَنَدَّمُوا
وما برحوا إن خاذلتهم ظنونهم	وأعمالهم مَدَّوْا المَنَى وَتَوَهَّمُوا
فُرَادَى وَأَحْدَاثَ الزَّمانِ جَمِيعَةً	وَفَدَّ عَلِمُوا سِرَّ الزَّمانِ وَعُدَّتُمَا
حهدنا فلا مَنْ يَبَاعُ أَيْسَرَ بَعْدَهَا	ولا مَنْ أَضَاعَ القَطَنَ بِالْيُسْرِ يَحْجُمُ
يَظَلُّ الفَتَى والشَّيْخُ وَالطُّفْلُ وَالسَّا	جَمِيعُهُمْ بَيْنَ النِّبَاتَاتِ يَحْجُمُ
إِلَى أَنْ يَرَوْهَا قَائِمَاتٍ كَأَنَّهَا	عَلَيْهِمْ بِرَاحَاتِ السَّعُودِ تُسَلِّمُ
إِلَى أَنْ يَرَوْا أَقْطَانَهُمْ وَكَأَنَّهَا	لِدَائِمِ جُروحِ الْفَقْرِ والبُؤْسِ مَرَمُ
هناكَ وجوه النَّحْسِ تُسَلِّقِي لثَامَهَا	وبالْقَطَنِ كَانَتْ بَيْنَهُمْ تَقْلَمُ (١)

ومن هذا الضرب قول محمود غنيم في حالة الفلاح :

شاهدتُ لؤلؤة كالبرق تَأْتَلِقُ	على جبين أمير سار مختالا
قللتُ : ما أنت ؟ قالت : إني عرق	من جهة الزارع المسكين قد سالا

الناس تَنعَم والفلاح يحترقُ وليس يحرز لاجاها ولا مالا
امتصه الناس حتى ما به رمقُ كأنه صُبَّ للإيثار تمثالا^(١)

(د) ولما قتل أعمى مبصرآ في حى الصنادقية، ونشرت الصحف المصرية نبأ الجريمة
استغل إبراهيم المويلحي هذه المفارقة الغريبة، وجعلها قياسا يحمل عليه كل
ما كان منتشرآ في المجتمع المصرى حينئذ من أوضاع مقلوبة معكوسة، فكُتب
مقالا في التعقيب على هذه الحادثة، منه :

إذا أصبح الأعمى محررا، والأعمش مصوِّرا، وأصبح الوزير شاكيا، والمغنى
با كيا، وأصبح القاضى محتالا، والوصى مفتالا، وأصبح العالم مخرفا، والجاهل
مؤلفا، وأصبح الأجنبي مُدكِّلا، والوطنى مُدكِّلا، وأصبح مدير المعارف
أعجميا^(٢)، ومفتش المدارس عاميا، وأصبح عميد الشيطان يتعبد ويتعبد^(٣)،
واسم السلم خريستو بعد أحمد، وأصبح الدعى حسينا نسيا^(٤) ... فليس من غريب
المقادير أن يفتك الأعمى بالبصير^(٥).

(هـ) وتهكم مصطفى الرافعى بأحلال الروابط بين المصريين :

قَوْمِي (ولا فخر) على حالة لا يعرف الإنسان إنسانا
فكلهم مأربه واحدٌ فيما أرى شيئا وشبانا
(وظيفة) تكتب تحت اسمه أو (رتبة) تذكر عنوانا^(٦)

(١) صرخة في واد ٢٩٣ (٢) تعريض بالمستردائلوب مفتش المعارف إذ ذاك

(٣) تعريض بالشيخ أبو الهدي الصيادى الذى كان عظيم المقام فى بلاط السلطان عبد الحميد

(٤) تعريض بالشيخ على يوسف صاحب المؤيد (٥) فلاسفة وصعاليك. مخطوط

(٦) ديوان الرافعى ٢٤/٣

(و) وللشاعر الزجال حسين شفيق المصرى المتوفى منذ بضع سنوات براءة في هذا المجال ، وشهرة دائمة .

وقد عارض المعلقات العشر ، وكثيرا من القصائد المشهورة قديمة وحديثة ، فمزج الجد بالهزل ، ومزج الفصحى بالعامية ، وجعل موضوعاته نقدية اجتماعية . وكان كثيرا ما يغير في الكلمة الفصحى أو في الكلمة العامية تغييرا بالزيادة أو بالنقصان ، أو بالتقديم والتأخير ، فيجىء تغييره نفسه باعثا على الضحك .

من ذلك معارضته لقصيدة النابذة الديبائى متى مطلعها :

يادارَ مِيَّةً بالعَلَمَاءِ فالسَّنْدِ أَقْوَتُ وطال عليها سالفُ الأمدِ

تهكم فيها بالمغالاة في جهاز العروس وملابسها وحليها ، وبالسفهاء الذين يحملون أنفسهم فوق طاقتها ، حبا في الظهور . فقال :

راحوا لبيع نحاس البيت تكملة لأجرة التخت غنى ليلة الأحد

تزوجت أختنا من بعد ما كُتِبَتْ عامين ما بين سمان وأورزدى^(١)

هذا حرير وذا صوف وذاك إذا شئت من القطن أثوابا بلا عدد

وصيفة لو وزناها لما نقصت عن أقة ذهباً موزونة بيدي

أبوك يا بنت مسكين يموت غدا من غيظه أو يبيع البيت بعد غد

هذا الجهاز رهنا كي نجى به أطياننا وصبحنا أفقر البلد

لكنها أمها قالت : أنفضحنا ؟ لابد من دعوة الأعيان والعمد^(٢)

ويستمر في تهكمه ويفرق في العامية .

(١) أورزدى بك المجر المعروف باسم عمر أفندى بالقاهرة . وكذلك سمعان صيدناوى

(٢) أبونواس الجديد ٢٨

(ز) والفكاهات الشعبية حافلة بالسخرية من غش الباعة والتجار والصناع ، وإخلافهم للوعود ، ونقضهم للمهود .

منها أن صاحب مطعم في مصر كان يتفقد مطعمه ، ويعمر على الآكلين ، فنبهه أحدهم إلى أن اللحم الذي أمامه يابس لا تقطعه السكين . فنادى صاحب المطعم أحد العمال وقال له : خذ هذه السكين ، وأحضر سكيناً غيرها أمضى منها^(١)

ومنها أن بائعة لبن جاءت بوعائها إلى أحد المنازل ، وكان أول منزل مرت به صباحاً ، فلما كشفت غطاءه صاحت ربة البيت : ما هذا ؟ إنه ماء صرف لا لبن . فدهشت البائعة واعتذرت بقولها : لا حول ولا قوة إلا بالله ، لقد نسيت أن أضيف اللبن إلى الماء .

ما وراء الفكاهة

نخطيء إذا نظرنا إلى الفكاهة على أنها ، لاتعمد أن تكون وسيلة للإضحاك ،
فإن الفكاهة تجمع إلى الإضحاك دلالات عدة جديرة بالنظر والدراسة .

وقد بينا في أنواعها السابقة دلالة كل نوع من حيث أصوله النفسية ،
وطابعه الفني .

والآن نتحدث عن دلالتها اللغوية والسياسية والاجتماعية .

دلالاتها اللغوية

اتهم بعض الباحثين اللغة العربية بالجفاف والتزمّت والعبوس ، واستدل
على ذلك بأنها غنية جداً بالكلمات الدالة على المصائب والأحزان والكوارث .
ولسكنه نسي أنها أغني بالكلمات الدالة على السرور والضحك والفكاهة .
وحسبنا هنا أن نذكر بعض المفردات الدالة على غنى اللغة بالكلمات الدالة على
الفرح والفكاهة والضحك وأنواعه^(١).

— ١ —

الفرح : نقيض الحزن ، ورجل فرح وفرحان ، وقد فرح ، وأفرحه غيره
وفرّحه ، والمُفراح كثير الفرح .

(١) لسان العرب والمخصص والقاموس المحيط والإفصاح

المَرَح : شدة الفرح ، وقد مَرَحَ مَرَحًا ومَرَّاحًا ، فهو مَرَحٌ ، ومَمَرَّاحٌ
أى كثير المرح .

الجَذَل : الفرح ، وقد جَدِلَ فهو جَذِلٌ وجاذلٌ وجَذَلانٌ .
السُّرُّ والسُرور والسَّرَّاء : الفرح .

البَشْر : طلاقة (الوجه) ، بَشِرَ يبشر ، وأبشَرته وبَشَّرته فتَبَشَّرَ
واستبَشِر . والبشير المبشِّر ، وهم يتباشرون بالأمر أى يبشر بعضهم بعضا .

الطرب : خفة تَمتَرى عند الفرح . ورجل طَرِبٌ وطروبٌ ومِطْرَابٌ كثير
الطرب . واستطرب طلب الطرب ، وطَرَّبَهُ غيره وَتَطَرَّبَهُ وأطربَهُ .

الابتهاج : السرور . بَهَجَ بالشئ فهو فرح بهيجٌ وبَهَجَ
غيره وأبهجه أفرحه وسره .

البَشُّ والبشاشة : طلاقة الوجه والإقبال على أخيك والضحك إليه
وفرحك به .

الازدهاء والاستخفاف : الفرح الشديد . والاستبشار والابرشاق : الفرح

الْمَزْحُ وَالْمِزَاحُ وَالْمِزَاحُ وَالْمِزَاحَةُ : نقيض الجدِّ .

الدُّعَابَةُ والمِدَاعِبَةُ : المِزَاحَةُ . وتداعب الناس داعبٌ بعضهم بعضا . وأذْعَبَ
الرجل جاء بشئ يُسْتَمَلَحُ .

المُتَلَحَّة : الكلمة المليحة ، أمْلَحَ الرجل جاء بكلمةً لينةً .

الفُكَاة : الإطراف بِمَاحِ الكلام ، يقال فَكَّهْمُ تفكيها . والاسم الفكاهة
والفكاهة ، والمصدر الفكاهة .

الفاكهة هو المزاج ، والتفاكهة التمازح ، والرجل فككه وفاكهة إذا كان طيب النفس ضحوكا يحدث صاحبه فيضحكهم . وفاكهة فلان فلانا مازحه .
الهزل : نقيض الجد ، والهزلة الفكاهة هزل يهزل هزلا ، وهازل غيره ، ورجل هزيل كثير الهزل .

المُمارزة : المفاكهة التي تشبه السباب .
اللقس : من يلقب الناس ويسخر منهم .

— ٣ —

في اللغة كلمات كثيرة تدل على أصوات الضحك وهيئاته .
فالضحكة : الذي يضحك من الناس . والضحكة : الذي يضحك عليه الناس . والأضحوكة : ما يضحك منه .
وفهقه : إذا رجَّع في ضحكته . وهأها : إذا فهقه . واقتَرَّ : إذا بدت أسنانه عند الضحك ، ومثله بَسَمَ وتَبَسَّمَ وابتسم .
الهُسُوف والهِنَاف : هو الضحك فوق التبسم ، أو الضحك الخفي .
والخنين : الضحك في الأنف . وأرتأ الرجل : إذا ضحك في فتور . وأنشَغَ الضحك : إذا ضحك ضحكة المستهزئ . وتَغَتَّ الجارية الضحك : إذا أرادت أن تخفيه فقالها .

والقرقرة : حكاية الضحك المستغرب فيه . والهزرفة : من أسوأ الضحك .
والدغدغة : السخرية وحركة وانفعال في نحو الإبط والأخص . والفينة :
الفترة عند شدق الغلام الضاحك . والمهزاق : الكثير الضحك ، وأهزق في ضحكته : أكثر منه .

دولتها النفسية

تلك نبذة من ثراء اللغة بما يدل على الضحك والفكاهة والسرور .

أما المتكلمون بهذه اللغة فقد كانوا — وما زالوا — كافرين بالفكاهة ،
سباقين إلى الضحك ، نواقين إلى الابتهاج .

١ — ولقد تحدثنا في التمهيد عن مباحاتهم بالطلاقة والبشر ، ومدحهم
بالبشاشة والظرف ، وبغضهم للعُبوس والثرثرت . وتحدثنا عن تفكه العظماء
والعلماء وضحكهم ، وفي مقدمتهم الرسول ﷺ .

٢ — وعرجنا على عناية المؤلفين بإيراد النوادر والمُملَح في فصول خاصة ،
أو في تضاعيف العلم والجِدِّ ، يُحَكِّلون بها كتبهم ، ويمثون في القراء النشاط
والإقبال ، ويدفعون عنهم السَّامة والملال . وهم على ثقة من صواب ما فعلوا ، لذلك
دافعوا عن صنيعهم هذا ، وبيَّنوا جذواه .

٣ — ولقد بلغ كلف الأدباء بالفكاهة إلى حدِّ التسمُّح فيها باللحن والخطأ
اللغوي . ونحن نعلم أن اللحن في ضبط آخر الكلمة أو في بنيتها ، وأن الغلط
اللغوي ، عيبٌ لا تَسَامُحُ فيه . لكنهم تسامحوا في الفكاهة وحدها ، وتساهلوا
في التعبير عنها ، لكفهم بها ، وإيثارهم لها ، وميلهم إلى أن يَرَوْها على أصلها ،
ويوردوها كما قالها صاحبها .

قال الجاحظ في ذلك : « ومتى سمعتَ — حفظك الله — بنادرة من كلام
الأعراب ، فيأيك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها . فإنك إن غيرتها
بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من
تلك الحكاية وعليك فضل كبير .

وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، ومُلححة من مُلح الحشوة والطَّعام ، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب وتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من قيك مخرجاً مريباً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أريدت له ، ويُذَرَّبُ استطاباتهم إياها واستملاحهم لها ^(١)

٤ — وظاهرة أخرى من الكَلَفِ بالفكاهة ، أن بعض الفكهين تَدَدُّوا بأنفسهم ، لِيَضْحَكُوا ، وليضحكوا غيرهم . ولو لم تكن نفوسهم مشربة حبَّ الفكاهة والضحك ما فعلوا ذلك .

وقد أوردنا أمثلة عدة من هذا اللون في (تهكم الشخص بنفسه)
وهذا مثال آخر لعلَّيَّ بن المغربي ، من قصيدة طويلة :

دِدِنْ دِدِنْ دِدِنْ رَبِّي	أنا على بن المغربي
أنا الذي أُسَدُّ الشَّرَى	في الحرب لا تَحْفِلُ بي
إذا تَمَطَّيْتُ وقد	رَفَعْتُ فيهم ذَنْبِي
أنا امرؤُ أَنْكِرُ ما	يعرف أهل الأدب
ولي كلامٌ نَحْوُهُ	ليس ككنحو العرب
فإن سألت مذهبي	فهاك عينَ مذهبي
أكل ما أحبه	ورغبتني في الطيب
ولم أزاكم أحدا	على هليٍّ مَنْصِب
ولا دخلت قط في	عمري بيت الكتب

ولا عرفت النحو غير رَ الجرّ بالمتنصب
 كلا ولا اجتهدت في حفظ لغات العرب
 ولا عرفت من عرو ض الشعر غير السبب
 كلا ولا اشتغلت بالنَّجوم والتطبيب
 وأيس في المنطق والْحكمة أضحي أَرَبِي^(١)

وهذا كاتب من كتاب العصر الحديث كان كثير التندر بنفسه ، وكان كثيرا ما يسلك في تصويره لأحداثه وأحواله مسلك الفكاهة الحلوة .

نعم كان إبراهيم عبد القادر المازني كاتباً لبقاً ، خفيف الروح ، جَذَّابَ العرض ، بارع التشوين ، لطيف الدعابة والفكاهة . وله في هذا الميدان جولات شتى .

فمن تفككه بنفسه قوله : « لست أخشى اللصوص ، فامعى ولا في بيتي ما أخشى عليه الضياع . واثق أن أُمْنِي فيه بالخسارة . ولو أن لصاً كريماً فيه مروءة دخل بيتي — أو حيث أقيم ، فما هو بيتي — وحمل ما فيه من متاع لمُتْلِتهُ شكراً ، ولبعثت بسسخة منه إلى الصحف ، فإن من اللؤم أن يقابل الإحسان بأقل من الشكر . وإن في قولي (متاعاً) لتجوزا في التعبير ، وإغراقاً في حسن الظن بالقراء ، فما أرى لي متاعاً في شيء مما حولي . وسبب آخر يُجَرِّئني على لقاء اللصوص ، ويجعلني لا أهتمَّ بهم ، وذلك أني كما تعلم — أو كما لا تعلم — ضامرٌ ضاوٍ ، ظاهر الضالة ، بادي الضعف . وأوجزُ تعريف بنفسى يحضرني الآن هو أنني امرؤ فارغ الثياب »^(٢) .

٥ — وكثيرا ما تندر الأصدقاء بخلطائهم وإخوانهم ، فتقبلوا تندرهم ، وشاركهم في الضحك . وكثيرا ما تداعب الأوداء ، وتفاكهوا ، وتهكم بعضهم ببعض كما أسلفنا في الدعابة . وهذا دليل آخر على انبساط النفوس ، وإيثار المسرة ، والترحيب بالضحك .

فقد تهكم الجاحظ ببخل صديقه أحمد بن خَلَف ، ولم تمنحه صداقته له من التندر به كما تندر بسائر البخلاء ، وتوقع أن يلومه بعض الناس في ذلك ، لأنه بذمه لصديقه قد ذم نفسه ، فرد عليهم بهكم أقسى ، وسخرية بالبخل الذع « ولا تقولوا الآن قد والله أساء أبو عثمان إلى صديقه ، بل ما تناوله بالسوء حتى بدأ بنفسه ، ومن كانت هذه صفته ، وهذا مذهبه ، فغير مأمون على جليسه ، وهذا والله الشُّيُوع والثُّبُوع والْبَذَاء^(١) وقلة الوفاء . اعلوا أني لم ألتبس بهذه الأحاديث عنه إلا موافقته ، وطلب رضاه ومحبتة ، وذلك أن أحب الأصحاب إليه أبلغهم قولا في إياس الناس مما قبَّله ، وأجودهم حَسْما لأسباب الطمع في ماله . . . »^(٢) .

ويقول في موضع آخر إنه سيذكر أحاديث كثيرة عن البخلاء ، بعضها يدل على أصحابه بغير ذكر لأسمائهم ، منهم الصديق والوليّ والمستور والمتجمل . وبعضها لا يتوفر حسنه إلا بأن تنسب إلى أهلها ، وبعمادتها واللاتقين بها ، وفي قَطْع نسبتها إلى ذويها سقوط نصف المُلحَة ، وذهاب شَطْر النادرة^(٣) .

وكثيرا ما تندر المازني بزوجته وأمه وجدته وعمته وغيرهن .
تحدث في مقدمة أقصوصة من أقاصيصه عن جدته وعمته فقال : نشأت

(١) الشُّيُوع : الوقود الذي يحرق بناره الصديق . الثُّبُوع : المراد التجسس وإفشاء

السِر . البذاء : الفحش

(٢) البخلاء ١ / ٨٢

(٣) البخلاء ١ / ٣٠

في بيت لم أكن أجد فيه من يكلمني، لالِقلَّة في أهله، ولا لبسكِّم يعقد ألسنتهم، بل لأن مشاغلهم كانت تصرفهم عني . فهذه جدتي — لأبي — كانت لا تفارق السجادة — أو الفروة على الأصح — وفي يدها السبحة التي لا أذكر أن الخيط الذي ينظم حياتها انقطع ، وشفتاها لا تَكُفَّان عن الحركة والتمتمة بما لا أعرف من الأدعية والصلوات على النبي . وما أ كثر وأطول ما كنت أقعد أمامها مُحَدِّقاً في هاتين الشفتين الدائبتين دُوبَ الليل والنهار . وكانت ربما ماتت على وجهي الصغير بفمها الا ذرد وقبلتني ، فتخرج شفتاها صوتاً كهذا (مق) وكانت عمة أبي ممنا ، وكانت عجوزاً ناهزت المائة ، وكانت تجلس وساقاها ممدودتان أمامها ، ورأسها مستند إلى وسادة ، ولسانها لا يعمل الدوران . وكان كلامها هذياناً ، فكنت أضحك منها أحياناً ، ثم أملُّ ذلك ، فأتركها لهدرها الذي لا ينقطع ^(١) :

ويتفكك مع زوجته كثيراً ، كما قوله في مقدمة مقاله (السيارة المسروقة)
« إن من الواضح أن تربيتك ناقصة جداً .

هذا أنا — بجلال قدرى — أكلك منذ عشر ساعات وخمس وعشرين دقيقة وثلاث وأربعين ثانية ، وأنت لا تجيبين .

فقلت زوجتي أخيراً ، وألقت ما بيدها — وكان شيئاً تطرزه أو لا أدرى ماذا تعنى به — : إني لست اليوم كففتاً لك ولهزلك ، فاسكت من فضلك .

قلت : هذا بديلٌ جميل من الإعتذار . ألا تستحين يا امرأة ؟ ثم ما هذا الذي تتشاغلين به عن التقاط الحكمة من فم سيدك وتاج رأسك ، وبَعْلِكَ ؟
قلت : أرجوك ، أرجوك يا مسلم . ثم إن الطباخة خرجت . فانتفضتُ واقفاً ، وصحيت : نهارك أسود ^(٢)

(٢) في الطريق ١٩٨ .

(١) في الطريق ٧٣ .

دلالتها السياسية والاجتماعية

في مصر

- ١ -

تمهيد

بواعث الفكاهة في المصريين

ليست الفكاهة صادرة من المتفكرين للضحك والإضحاك فحسب ، وليست أمام الباحثين طرائف للهو وجلب السرور فحسب ، وإنما هي في كثير من حالاتها تصوير للحالة السياسية بألوان فيها تهكم أو سخرية أو نقد أو دعاية أو غيرها من صنوف الفكاهة ، وذلك بأن الناس لا يستطيعون أحيانا أن ينالوا من حكامهم بالأسلوب الجدّي ، مخافة البطش أو التنكيل والعقاب ، فيلجئون إلى الأسلوب الفكاهي ، لأنه مأمون العاقبة .

وهم في كثير من الأحيان يشعرون بالضبط الواقع عليهم ، فيتخففون منه ، ويخففون عن أنفسهم بألوان من الفكاهة ، ويحاولون تقويم الحكام وهدايتهم سواء السبيل ، أو تقويم المجتمع وعلاج أمراضه ، أو الثأر من الأتقياء الجبارين .

وهذه تلك صدّى للحياة السياسية ، وصورة لشعور المحكومين ، ونظرتهم إلى حكامهم .

- ٢ -

وبحسبنا أن نستمد منها صورا للأحوال السياسية في مصر ، لتكون نموذجا لغيرها من الأمم الدربية قديما وحديثا .

وهناك عوامل عدة صبغت طبع المصريين بالمرح والفكاهة .

١ — فالبيئة الطبيعية التي عاش فيها المصريون ذات ميزات كثيرة ، وهي
بميزاتها بعثت في نفوسهم الرضا والاطمئنان والصبر والتفاؤل والمرح .

ففي مصر نهر النيل المعطاء ، يفيض على الوادى الخصيب بالخير ، ولا يكاد
يَنْصَبُ جريانه ، أو يتخلف فيضانه ، وليس عليهم إلا أن يمهّدوا الأرض ،
ويبدروا فيها الحب ، وَيُكَلِّمُوا ظمأها بالماء ، ثم ينتظرون الثمر وهم آملون مطمئنون
وبعد أيام تطول أو تقصر يجفون ثمار ما غرسوا وهم مفتبطون راضون . ولقد
كانوا وما زالوا يبتهجون بموسم الحصاد ، فَيَهْرَجُونَ وهم يعلّون في الحقول ،
وتتجاوب أغانيهم وضحكاتهم مع زغاريد الفتيات والنساء .

ثم إن سماء مصر باسمة دائماً ، صافية دائماً ، قلما تتجهّم ذلك التجهّم السكتيب
الطويل القابض للصدر ، وإذا ما تلبّد الغيم وتراكم وأظلم الأفق فسرعان ما تسوقه
الرياح ، أو تقشعه الشمس ، أو ينصَبُ منه المطر الغزير المdrار ، فإذا السماء صحو ،
والأفق سافر ، والنور مشرق . ولهذا الصفاء أثره في صفاء النفوس وطلاقة
الأسارير وسهولة الطباع .

على أن مصر تكاد تكون بمنجاة من رجّات الطبيعة وهزاتها
العنيفة القاسية المدمرة ، فقلما حدثت مجاعة ، وقلما خَرَّبَ زلزال مدينة ،
أو قوّضت العواصف بناء ، أو قضى القَرُّ والجليد على الثمرات ، ومن أجل هذا
لم يذق المصريون قسوة الحرمان ومراة العُدْمِ ورعداء الطبيعة ، ومن أجل هذا
لا نجد في أناشيدهم منذ القدم ما وجدناه في صلوات الآرايين القدماء النازلين
بشواطئ الهند من دعوات حارة للإله أن يُجَنِّبَهُم الجفاف والقحط ، ويرسل
عليهم السحب المحفلة بالماء ، ويقيهم الكوارث المفاجئة .

ولاشك أن الحياة في السهول الفساح المنبسطة وَقَتِ المصريين الأوهام

والمخاوف وتعمّد النفوس . يقول جستاف لوبون « إذا كان المصرى قد شعر
بالسآمة من سهولة الوضّاء المحرقة فإنه قد جهل الآلام المفزعة التى تنشأ على
شواطئ البحار الموحشة ، وفي ظلال الشفق الأغبر تحت السماء المتقلبة الغادرة ^(١) »
يضاف إلى ذلك لُطْفُ المناخ ، وقوة الصحة ، واعتدال المزاج ، وثبات
الجو ثباتا لا نجد فيه تفاوتا كبيرا بين الفصول . وهذه عوامل يسّرت على
المصريين أن يعيشوا فى الهواء الطلق ، سواء أكانوا فى منازلهم أو خارجها ، وسهلت
عليهم الإقامة طويلا فى الفضاء الرحب المنبسط ، والاكتفاء بالملابس الخفيفة
التي لا تضغط على الجسم وترهق النفس ، وحتمت من الأمراض الناشئة عن تقلب
الجو . وهذا كله معين على انشراح صدورهم ، وسماحة نفوسهم .

٢ — والتدين ذو أثر عظيم فى الرضا والسماحة واجتلاب المسرة والفسكاهة .
وقد كان المصرى منذ عهد موغل فى القدم عريق التدين ، عميق العقيدة ، وكان
يدين بحياة آخرة ، وكان يهتم بها ، ويعمل لها ، وهذا هو السبب فى أنه لم يحترق
بنار الحيرة والشك فى مصيره ، ولم تذهب نفسه شعا ما من موت أحبائه ، لأن
الفناء فى عرفه وهمٌّ ، والقبر هو المرفد الطيب ، والقار هو المدينة الخالدة ،
ومن أجل هذا لم يعرف المصرى كلمة يدل بها على العدم ، لأنه لم يعرف العدم .
وهناك فى الحياة الآخرة ستخلد روحه ، وسيحيا مرة ثانية مع أحبائه
وأصدقائه ^(٢) .

والحق أن هذه العقيدة ذات أثر عظيم فى فرح النفس ومرحها ورضاها ،
وتطلقها ، لأنها هى السلوى الوحيدة التى يُعزى بها المرء نفسه عن حياته

(١) الحضارة المصرية القديمة ٧٥ (٢) ديانا قدماء المصريين. ٨٩ سليم حسن .

الفانية ، وهى التى تجمله أقل من غيره حنقا على الموت الذى يتخطف الأجزاء .

حقيقة كان المصريون والمصريات يكون الميت ، ويمجنون عليه ، وكانت النساء يعفرن رءوسهن بالتراب ٠٠٠ ولكن هذا كله علامة إكبار للميت أكثر من أنه علامات سخط على الموت ، لأن مصر لم تكن ترى الموت مؤلما ، وهذا التصور هو الذى خفف الفجيمة فى المصير الذى ينتهى إليه كل مخلوق ^(١) . ولهذا فإن الاسم الحقيقى لكتاب الموتى هو كتاب (الخروج إلى النهار) . وأى النور . وهذا يدل على فكرة المصريين فى الموت ، فمندهم أن النزول إلى القبر دخول فى حياة جديدة أكبر مجداً من سابقتها ، فيها يرى الميت الصالح النور السماوى والنهار الإلهى ^(٢) .

٣ — أما صلة المصرى بالحكومة فلم تكن صلة دأبهم ولا تمرد وترثص للثورة . فقديمًا خضع المصرى لفرعون على أنه إله ، وأجله على أنه والد ^(٣) .

فكان المصريون القدماء يحبون ملكهم ويحترمونه ، لأنه أبوهم وشقيق آلهم ، ومنبع كل فضيلة وعدل . وقد تحدث المؤرخ ديودور الصقلى عن حزن الشعب حينما يموت الملك بقوله : « عندما تفيض روح الملك يحدُّ عليه جميع السكان ، فيمزقون ثيابهم ، ويفلقون المعابد ، ويكفون عن القرابين ، ولا يقيمون أى احتفال مدة اثنين وسبعين يوما ^(٤) »

وبعد ذلك لم تنتج الحكومة بنفسه امتزاج الألفة والطواعية والمعاملة المشكورة ، فصداً عنها ، واعتمد على الأسرة ، وحصر عواطفه فى علاقاته البيتية ، وابتمد عن الحكومة ما استطاع .

(٢) المرجع سابق ١١٦

(١) الحضارة المصرية القديمة ٨٠

(٤) الحضارة المصرية القديمة ٦٤

(٣) الحضارة المصرية القديمة ١١٠

فليس عجيباً بعد هذا كله أن يشهد « جوستاف لوبون » بأن الظرف والمرح والتلف كانت من أبرز خصال المصريين القدماء ^(١). وليس عجيباً أن اشتهر المصريون بالنسكتة بين جيرانهم ، ومُعرفوا بالتنكيت في الزمن القديم ، كما عرفوا به في الزمن الحديث ، حتى قيل إن الرومان حرّموا عليهم الحمامة في محاسنهم الإسكندرية ، لأنهم كانوا يَفُضُّون من هيئة القضاء الرومانى بالزاح والدعابة وفي أثناء الدفاع وشرح القضايا .

« وليست لللباقة وبراعة الحديث ولطف النادرة وحسن المؤانسة بالخصال المستغربة في أمة قديمة الحضارة ، عريقة الآداب ، منصرفة في أكثر الأحيان إلى السلم والمعيشة الوادعة ، وأُخْلِيق بهذه الخصال وحدها أن تكون يَبُوعاً فَيَاضاً للنسكتة وللباقة التعمير في الجد والهزل على السواء . فإذا أُضِيفَت إليها عِبَرُ الأيام ، وقائض التاريخ ، وأطوار الحوادث المتعاقبة ، ففي ذلك مَدَدٌ للفكاهة لَا يَنْصَبُ ، وإغراء بالترويح عن النفس لا يزال يهديها إلى التبسط والمزاح .

لذلك كان المصري مَرَّاحاً بحكم لباقة الاستفادة من قِدَم الحضارة ، ومزاحاً بحكم الحوادث التي تلجئه إلى التخفيف وقلة الاكتراث ، ومزاحه في جميع الأحوال مُتَّسِمٌ بالصبغة المصرية ، مطبوع بطابع إقليمه وتاريخه ، بحيث يَنُمُّ على خصائصه الفكرية والنفسية ، وَيُمَيِّزُهُ نمطاً وحده قليل النظائر بين أنماط الفكاهة والتنكيت ^(٢) »

٤ — والمصري معروف بمحافظته على تقاليده وعاداته إلى حد كبير ، حتى تبدو — من شدة محافظته عليها — كالغرائز لافسك منها ، ولا سيما عند العامة ، لأنهم يسيرون إلى التطور ببطء ، وإن شئت فقل إن التطور يسير اليهم ببطء . أما الخاصة فهم أسرع من العامة تطوراً ، لأنهم أعظم اتصالاً بالأحداث

(٢) سعد زغول ٣٠ للعقاد

(١) الحضارة المصرية القديمة ٧٥

(٣) — ٧ الفكاهة في الأدب ج ٢

السياسية والاجتماعية، وأرق معرفة. ولقد يكون مرّك ذلك إلى أن العامة كانوا في جميع العصور لا وزن لهم في نظر الملوك والحكام والخاصة ، وكان هؤلاء لا يمشون بالعامة إلا ليتخذوا منهم الجيوش المحاربة ، والأيدى العاملة ، والينابيع المتدفقة بالأموال . والحق أن هذا كان دأب الحكام في الأمم القديمة كلها ، لكنه كان في مصر أشد وضوحا ، وأشمل بسطة ، وأعمق تأثيرا ؛ لأن مصر رزحت قرونا كثيرة تحت وطأة الغاصبين والدخلاء الحاكمين .

ولقد كان إهمال الحكام للشعب ، وعزلة الشعب عنهم باعنا على احتفاظه بمقوماته وعاداته ، حتى استطاع في كثير من الأحيان أن يصبغ الدخلاء بصبغته ، ويفرض عليهم — عن غير قصد — تقاليده وعاداته .

وأغلب الظن أن عزلة الشعب صرفته إلى نفسه ، فلم يحفل كثيرا بعدن الحكام أو ظلمهم ، ولا بصلاحيهم وفسادهم ، لأنه يئس من رجاء الخير فيهم ، فتسامح في حقوقه ، وتساهل في واجباته ، وعال إلى المرح وسماحة النفس ، ولم يكاف نفسه مشقة التفكير فيما تحبئه الأيام من صروف السياسة ومؤامرات الساسة ، أو فيما يفجأ به الغد من أحداث .

على أنه لا يصح أن يفهم من ذلك أن الشعب كان طبقة متميزة من سواها تميزا مزدري كما في الهند ، لأنه لو كان الأمر كذلك لامتلات نفسه سخطا ومونجة ومذلة . وإنما كان المصريون القدماء منقسمين إلى أنواع من الناس ، بحسب الحرف التي يمارسونها ، والمهن التي يحترفون بها . ولم تكن الحرف وراثية محتمة .

« أما الوظائف العليا لرجال الحرب والقساوسة فقد كانت أرسقراطية ، يمكن أن تشبه بأرسقراطية السيف والثوب في فرنسا ، ولكنها لم تكن محتكرة لطوائف

خاصة ، إذ كان يستطيع كل إنسان أن يسمو إليها . ولم تكن في مصر ألقاب شرف حقيقية إلا بالتعليم ، فقد كان العلم مطلوباً من كل من يطمع في الحصول على أعمال في الإدارة أو الجيش . وكانت تجرى امتحانات للدرجات المختلفة مماثلة للباكالوريا وللدكتوراه عندنا ^(١) . »

٥ — كان من آثار ذلك أن أغرم المصريون القدماء باللهو والسرّات ، فأحبّوا الاجتماعات والمآدب والحفلات السارة والرقص والموسيقى والمحادثة والألعاب ^(٢) . وطالما دعا أدباؤهم وحكّاءهم إلى الطلاقة في الحياة ، وإلى الأخذ بأسباب البهجة أنسى كانت وحيث وُجدت . ولم ينسوا أن يحضّوا على الابتهاج واقتناص السرور حتى وهم في زيارة المقابر ، وبين الموتى .

من أغاني المصريين القدماء في ولائهم التي كانوا يولونها في المقابر :

كن فرحاً حتى تنسى أن القوم سيحتفلون يوماً بما بموتك . فتع نفسك مادمت حياً ، وضع العطر على رأسك ، والبس الكتان الجميل ، وذلك جسمك بالروائح الذكية المقدسة ، وزد كثيراً في السرّات التي تملكها . ولا تجملن قلبك بكتّيب ^(٣) .

وفي أغنية لشاعر آخر :

لم يَعدْ إلينا من الدار الآخرة أحد ليحدثنا عما فيها
لم يعد أحد ليطمئننا إلى أن يحين يومنا الموعود
إذن فاطرّب وافرح ، واعمل ما تحب ، مادمت حياً
لا تذكر قلبك إلى أن يحى . يوم البكاء عليك

(١) الحضارة المصرية القديمة ٦٥ جستاف لوبون

(٢) مصر القديمة ٢/٤٢٥ سام حسي

(٣) الحضارة المصرية القديمة ٧٧

اطرب في يومك ولا تحمل همًا
انظر ليس أحد يأخذ أمواله معه
أنظر ليس أحد يعود بعد أن يمضى^(١)

وكان من آثاره أن أدبهم صورة من طباعهم ، ولم يحل أدب مصر من دقة
الملاحظة ، مع الميل إلى التهمك والاستهزاء ، وفي متحف تورينو والمتحف البريطاني
أوراق من البردى ملؤها الصور الهزلية التي لا تخلو من غمز^(٢)

- ٣ -

ورث المصريون هذا النزوع ، وتسلسلوا بالفكاهة حتى في عصور الضعف
والخضوع للغاصب ، وبلغت الفكاهة المصرية في العهد الروماني مبلغا من القوة
والسخرية والذع دفع الرومان إلى أن يحظروا على المحامين المصريين الدفاع في
محاكم الإسكندرية ، لأنهم ظالماتهمكوا بالقضاء الروماني ، وتندروا بقضاة الرومان .
ثم جاء الفتح العربي ، وتماقبت على مصر دول وحكومات وأنماط من الحاكين
والفاصبين والنهازين للفرص ، وانتهى المطاف بأن رزحت مصر دهرا طويلا في
أغلال الإخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين ، ولم يكن قد طرأ على
المجتمع المصرى ما يغير استجابته للفكاهة ، والنيل هو النيل ، والبيئة الطبيعية كلهما
مازالت على حالهما ، وخيرات مصر مازالت تفيض .

وصلة المصرى بالحكومة مازالت على حالها القديم ، ليست دائما صلة ود
وامتزاج ، وليست دائما صلة تمرد وعناد .

والمصرى الذى كان فى التاريخ القديم عميق الإيمان عريق الدين مازال كذلك ،
على أن الإسلام والمسيحية زادا عاطفته الدينية رقة ودقة ورهافة .

(١) على هامش التاريخ المصرى القديم ٢ - ١٢ (٢) الحصار المصرية القديمة ١٢٦

يضاف إلى ذلك كله أن المصري حكم منذ الفتح العربي إلى منتصف القرن العشرين بأفراد أو أسرات لا تشترك معه في الأصل ، وربما خالفته في الجنس ، وهي إلى غربتها وفضولها تعتمد — في الغالب — على البطش والجور والاستئثار بخيرات الوطن . فكان لا بد للشعب أن يتهم ويتندر بهؤلاء الحكام وبأعوانهم من أجنب ومصريين . وليس من شك في أن أكثر هذا التهم كان همسا وسرا يتحدث به الناس في مجامعهم الخاصة الآمنة ، وأقله كان جهرًا . ولقد أقام ابن خلدون في مصر مدة ، وخبر أحوالها ، ولحظ ميل أهلها إلى الفرح والرح والخفة والغفلة عن العواقب ، حتى إنهم لا يدخرون أقوات سنهم ولا شهرهم ، وعامة ما كلهم من أسواقهم ^(١) . ولا شك أن في قوله هذا مبالغة ، لأن ادخار القرويين لأموالهم نظام سائد مُتَّبَعٌ من زمان قديم . لكنه — على مبالغته — تأييد لميل المصريين إلى المرح والخفة .

فالمصري العربي من أشد الناس ميلا إلى حياة الاستقرار والدعة والقناعة والرضا والصبر ، وهو خفيف الروح ، حلو العشرة ، ذكي لئال ، لا يُمَنِّي نفسه كثيرا بالتفكير في غده البعيد ، متسامح ، سريع المغفرة ، لين الجانب . وكثيرا ما يتحرر من العواطف العنيفة في بعض المواقف ، فيستطيع التأمل العقلي في هدوء وسكون واطمئنان ، وكثيرا ما ينظر إلى الأحداث الواقعة نظرة محصورة فيها ، فلا يسخط على القضاء والقدر والحظ .

فلا عجب في أن يقابل المصري المتناقضات والحقائق ، والأمور المختلفة ، والحظ المائر ، والكلمة النابية ، والفعلية المعادية ، والسخرية اللاذعة ، بسلاح يتفق وطبيعة أخلاقه . وهذا السلاح هو النكتة الموحية ، أو الابتسامة الساخرة ، أو

الضحكة العالية ، أو الفكاهة المعبرة عما يشعر به من استخفاف ، وقلما يتخذ سلاحه كلمة حائقة ، أو دمة متحدرة .

ومن هنا كانت الفكاهة مجالا لدراسة الحياة السياسية في مصر ، ولاسيما في عهود الاستبداد والحكم المطلق . وكان التهمك والنقد والدعابة واللعب بالمعاني والألفاظ والرد بالمثل طابعا للفكاهة المصرية ، ولاسيما الفكاهة الشعبية . وقد سبقت في أنواع الفكاهة أمثلة عدة لهذه الألوان .

والحق أن الأدب الشعبي كان أكثر بلاء في هذا الميدان ، وأصدق تصويرا من الأدب الرفيع ، لأنه صورة من مشاعر الشعب وأحوال المجتمع ، سواء أكان في أرجال أم في نوادر ومُلح وفكاهات . إذ كان قائلوه من صميم الشعب . على أن الأدب الرفيع لم يهمل هذه الناحية ، وإن كان مُقِلًّا فيها .

دلائلها السياسية في مصر

١ - تدلنا فكاهة المصريين على تدميرهم من المالك ، لأنهم في نظرهم أرقاء اشتراهم السادة بالمال ، وهم يدسون أصولهم أو يتناسونها ، ويتفطرسون على المصريين ، وَيُعْجَبُ المصريون حينما يصل بعض هؤلاء الأرقاء إلى الحكم .

اشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي تولى مصر سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩م) ألف مملوك ، وأسكنهم بالروضة ، وسماهم (البحرية) ثم أكثر من شراء الترك ، وكان يُعْتَقُّهم ويوليهم الوظائف والإمارة ، ولم يكن شيء من ذلك قبله ، فقال بعض الشعراء :

الصالح المرتضي أوبُ أكثر من ترك بدولته ، يأسر مجنوب

قد آخذ الله أيوبا بفعلته فالناس كلهم في ضرٍّ أيوب^(١)

وقد تهكم الشاعر المصري إبراهيم الميموني (من القرن الثامن الهجري .
والخامس عشر الميلادي) بالأمر طشتمر الذي كان يلقب (حمص أخضر) فقال :

أوردتَ نفسك ذُلًّا ورَدَّ النفوسَ المهانة

وبالدُّنا حُزْنَ مالا ملأت منه الخزانة

وكمْ عليك فلوب يا حمص أخضر مآلانه

وقال فيه أيضاً :

جُنِمتَ بالملك لما أتاك بالأسنط ماجن

وفد أمنتَ الليالي يا حمص أخضر وداجن^(٢)

٢ — — وتدلنا على سخريه الشعب من ساسته حينما كان يتولى المملكة
طفل ، ويَصْرَفُ شئونها قِيَم . ولقد يتنافس الكبراء والقواد والطامعون
في الحكم ، وتعارض وسائلهم مع المصلحة العامة للشعب .

يصور ذلك بعض الشعراء إذ وُلِّي ابن الملك الناصر المتوفى سنة ٧٤١هـ (١٣٥٩م)
وعمره أقل من ست سنين ، في قوله :

سلطاننا اليوم طفل والأكابر في خُلْف وبينهم الشيطان قد نَزَا

فكيف يطمع من تغشاه مظلمة

أن يبلُغ السُّؤْلَ والسلطان ما بلغا^(٣)

(١) حسن المحاضرة ٣٨/٢ (٢) تاريخ الأدب العربي ١١٣

(٣) حسن المحاضرة ٨٦/٢

٣ — ولقد كان بمض الذميين يُسَلَّم صدقا أوريا ، ويتولى الوزارة . لكن المصريين لم يكونوا يستريحون إلى أن يلي يهودى شئونهم ، وكانوا يستخطون أعماله . وحسبنا فى ذلك قول الحسن بن خاقان لما رأى صدقة بن يوسف الفلاحى وزيرا للملك الفاطمى الظاهر (سنة ٤٣٦ هـ ١٠٤٤ م) .

حِجَابٌ وَإِعْجَابٌ وَفَرْطٌ تَصَدَّفُ

وَمَدُّ يَدٍ نَحْوِ الْعَلَا بِكَ كَدَّفِ

فلو كان هـذا من وراء كفاية عَذَرْنَا وَلَكِنْ مِنْ وَرَاءِ تَخَلَّفِ

وقول شاعر آخر إذ هاله أن ينضم إلى ذلك الوزير يهودى آخر يساعده ، اسمه أبو سعد التستري ، وتهكم بما نال اليهود من عز وسلطان :

يَهُودُ هَذَا الزَّمَانُ قَدْ بَلَّغُوا غَايَةَ آمَالِهِمْ وَقَدْ مَدَّ كُؤَا

الْعُزِّ فِيهِمْ وَالْمَالُ عَنْدهُمْ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَشَارُ وَالْمَلِكُ

يَا أَهْلَ مِصْرَ إِنِّي نَصَحْتُ لَكُمْ نَهَوْدُوا قَدْ تَهَوَّدَ الْفَلَكَ^(١)

وكذلك تهكم شاعر بهيمة الله بن صاعد الوزير النصرانى الذى أسلم ، وكان فى عهد الملك ، وأرجع الضرائب التى كان صلاح الدين الأيوبي أبطلها^(٢) :

٤ — على أن بعض ألوان الفكاهة صور ناطقة بفساد الحكم واستبداد

الحكام ، وسيرهم على غير هدى .

فهذه نادرة تصفهم بالعمى فى أعمالهم ، حتى لقد كانوا لا يميزون بين الإنسان والحيوان . جرى أبو عبد الله الحسن بن عبد السلام المعروف بالجل المصرى الأكبر ، فرآه صديقه يجرى مسرعا ، فناداه أن يقف فلم يستمع له ، تخاف صديقه

أن يكون قد جرى لأن خَطْباً زل به ، فذهب إلى داره ، وطرق الباب ، فخرج له الجمل متخفياً ، فقال له صديقه : ماذا حدث يا أبا عبد الله ؟ ولماذا كنت تجري في الطريق ؟ وما السبب في تحفّيك الآن ؟ .

فقال له الجمل : ألم يبلغك أن السخرة قد وقّعت في الجمال ؟ يا أخي أنا لا أطمئن على نفسي ، لأنهم ربما قالوا : هذا جمل فيأخذونني ، فلا أتخلص منهم إلا بشفيع^(١) .

وها هو ذا البوصيري (المتوفى سنة ٦٩٥ هـ ١٢٩٥ م) يمزج بالفكاهة شكواه من الموظفين في عهده ، وبخاصة مباشرة الشرقية ، بعد أن خبر أحوالهم ، لأنه تولى الكتابة في الدواوين ، وبأشر الشرقية :

نَقَدْتُ طوائف المستخدمين	فلم أر فيهم أحدا أميناً
فقد عاشرتهم ولبنت فيهم	مع التجريب من عمرى سنينا
فكُتِبَ الشَّمالُ لهم جميعاً	فلا صحبتُ شِمالهم اليميناً
فكم سرقوا اللال وما عرفنا	بهم فكأنما سرقوا الميونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا	ولا شربوا خمور الأندرينا
ولا رَبُّوا من الفتيان مُرداً	كأغصان يمان وينحنينا
وقد طامت بضعهم ذقون	ولكن بعدما حلقوا ذقونا ^(٢)

فهو يصف سرقتهم مُغلّظاً بأنها جريمة مفكرة . وبأنهم اغتصبوها في سرعة وخفة ، وجنوا على الناس أبشع جناية ، فكأنهم سرقوا عيونهم . وهو يتهكم

(١) ذوو الفكاهة ٦٢

(٢) فوات الوفيات ٢٠٦/٢

بشرائهم الغادر ، واقتنائهم الغلمان ، ويسخر من إطلاق بعضهم للحاجم ، بعد ما حلقوا الحى غيرهم بسوء أعمالهم .

ثم يحىء عبد الواحد الرشيدى (المتوفى فى أوائل القرن السابع عشر) فيتهمكم بحاكم رشيد فى تورية بارعة ، إذ يقول :

فلت للنائب الذى قد رأينا معائبه

لست عندى بنائب إنما أنت نائبه

ويتهمكم بقاضى رشيد ، وكان ياتمر بأمر زوجته :

وقاض لنا حكمه باطل وأحكام زوجته ماضيه

فياليت له لم يكن قاضياً وياليتها كانت القاضيه

٤ — وفى الفكاهة ألوان تدل على ذكاء الشعب ومعرفته بدخائل الترك ونفسياتهم ، فلم يكن تسلطهم على مصر ، وأبهة حياتهم ، وغطرستهم المصطنعة ، لم يكن شئ من هذا بمخائل بين الشعب وفهمهم على حقيقتهم .

يحدثنا الخيال الشعبي عن غطرسة التركى — حيث لاعظمة ولا قوة ولا مناسبة للطرسة — بأن تركيا جاس أمام بيته ، وقد ملأ عدة فلل بالماء ليشرب منها المارة . وكان كلما رفع أحد قلة ليشرب منها قال له آمرا : دَعْ هذه ، واشرب من الأخرى .

وفى بعض الأمثال العامية سخرية بالأتراك حاكين وغير حاكين :

فهم أصحاب مظاهر زائفة « زى بعجر أغا ما فيه إلا شنبات » .

وهم وصوليون « زى التركى المرفوت يصلى لغاية ما يستخدم » .

وهم جاحدون للجميل لا يتورعون عن ضرب من يساعدهم أو طرده بلا سبب .

« آخر خدمة الغزّ علة (١) » « آخر خدمة الغز سكر (٢) » .

٤ - وفي الأدب الحديث صور كثيرة من التهم بالاحتلال البريطاني وهى بينة الدلالة على بغض المصريين له، وعلى معرفة المصريين بخداع بريطانيا وأكاذيبها، وعلى مظالم الاحتلال وسوء تصرفه للشئون .

فقد تهم شوقى بالاحتلال البريطانى الذى طغى على مصر ، وحرمَ بنيتها حقهم الطبيعى في ديارهم ، ثم استحل لنفسه - وهو الأجنبى الدخيل الغاصب - ما حرم على أبناء الوطن من الإقامة في وطنهم والانتفاع بخيراتهم ، فقال :

أحرامٌ على بلبله الدَّوْ حُ حلالٌ للطير من كل جس ؟
كلُّ دار أحقُّ بالأهل إلا في خبيث من الشرائع رَجِس (٣)

وكان كرومر ممثلاً للاحتلال البريطانى في مصر ، وقد مكث بها ربع قرن ، يستبد بشئون الحكم ، ويضعف اليقظة القومية . ثم عُرِزل أو نُقل بعد حادثة دنشواى ، سنة ١٩٠٦ وأبت كبرياؤه المجروحة إلا أن يطعن المصريين في خطبته التى خطبها في حفل توديعه ، فرماه بالذلة والجحود ، وانتقص من يقظتهم التى تزعمها مصطفى كامل ، وأنذرهم بأبدية الاحتلال ، واعتدى على شعورهم الدينى .

فردَّ عليه شوقى بقصيدة حارة طويلة ، تهم في بعضها ، كقوله :

أيامكم أم عهدُ إسماعيل أم أنت فرعون يسوس النِّيل ؟
أم حاكمٌ في أرض مصر بأمره لا سائلٌ أبدا ولا مسئول ؟
لما رحلت عن البلاد تشهدت فكأنك الداء العمياء رحيل

أَوْسَمْتَنَا يَوْمَ الْوَدَاعِ إِهَانَةً أَدَبٌ لِمَعْرُكٍ لَا يَصِيبُ مِثِيلًا
أَنْذَرْتَنَا رِقًّا يَدُومُ وَذِلَّةً تَبَقَّى وَحَالًا لَا تَرَى نَحْوِيلًا
أَحْسَبْتَ أَنَّ اللَّهَ دُونَكَ قُدْرَةً لَا يَمْلِكُ التَّغْيِيرَ وَالتَّبْدِيلًا
اللَّهُ يَخْضَعُ لَكُمْ فِي الْمُلُوكِ وَلَمْ تَكُنْ دُولُهُ تَنَازَعُهُ الْقُوَى لَتَدُولًا
فِرْعَوْنُ قَبْلَكَ كَانَ أَعْظَمَ سَطْوَةً وَأَعَزَّ بَيْنَ الْعَالَمِينَ قَبِيلًا
ثُمَّ تَهَكَّمُ بِالْإِصْلَاحَاتِ الَّتِي زَعَمَ كِرُومَرُ وَأَذْنَابُهُ أَنَّهُ أَدْخَلَهَا إِلَى مِصْرَ فَقَالَ :

قَالُوا جَلَبْتَ لَنَا الرِّفَاهَةَ وَالْفَيْئَ جَحَدُوا لِلْإِلَهِ وَصَنَعَهُ وَالنِّيْلَا
وَسَخَّرَ مِنْ سِيَاسَتِهِ الْخَرْقَاءَ بِقَوْلِهِ :

هَلْ مِنْ نَدَاكَ عَلَى الْمَدَارِسِ أَنَّهَا تَذَرُ الْعُلُومَ وَتَأْخُذُ الْفِتْيُولَا ؟
أَمْ مِنْ صَيَانَتِكَ الْقَضَاءُ بِمِصْرَ أَنَّ تَأْتِي بِقَاضِي دَنْشَوَايَ وَكَيْلَا ؟^(١)
أَمْ هَلْ يَمُدُّ لَكَ الْإِضَاعَةَ مِنَّةً جَيْشُ كَجَيْشِ الْهِنْدِ بَاتَ ذَلِيلَا ؟
ثُمَّ يَخْتَمُ الْقَصِيدَةَ بِقَوْلِهِ :

إِنَّا تَمَنِينَا عَلَى اللَّهِ الْإِنْسَى وَاللَّهُ كَانَ بِبَنِيْلَهْنَ كَفِيلَا
مِنْ سَبِّ دِينَ مُحَمَّدٍ فَحَمْدُهُ مَتَمَكَّنَ عِنْدَ الْإِلَهِ رَسُولَا^(٢)

وسخر حافظ إبراهيم في مطلع القرن العشرين من الآملين في الجلاء ،
سخرية يائسة ، فرآه محالا ، وعلقه على ظهور الأمارات الدالة على قرب الساعة
من سقوط الشهب ، وجفاف المياه ، أو على حدوث المستحيل ، ورجمة الزمان

(١) قاضى دنشواى : أحمد فتحى زغلول كان رئيساً للاحكمة الابتدائية فرءاء كرومر الى وكيل الحفانية .

(٢) الشوقيات ٢٠٩/١

القهقري إلى عهد القتال بالسيوف والرماح . وهذه نعمة يائسة ، لكنها تصور حقيقة كان يشمر بها كثير من الناس ، لأنهم أصيبوا بجحدر الاحتلال بعد إخفاق الثورة المرابية ، ولأن دعوة مصطفى كامل لم تكن تدوّت بعد . قال حافظ :

وأكبر ظني أن يوم جلائهم ويوم نشور الخلق مقترنان
إذا غاضت الأمواه من كل مُزبد وخرّت بروج الرّجُم للحدثان
وعادر زمان السمهرى ورثه وحكم في الهيجاء كل يمانى
هناك اذكر ايام الجلاء ونبها نياما عليهم يندب الهرمان^(١)
ثم تهكم بكاتب فرسى زعم أن جلاء الإنجليز عن مصر سيكون في أكتوبر
سنة ١٩٣٢ .

كم حددوا يوم الجلاء الذى أصبح في الإبهام كالخمسّر
وسنّ قوم الطلش من جهامهم كدبة إبريل لأكتوبر^(٢)
وقد أسلفنا أمثلة كثيرة في (التهمك السياسى) فحسبنا ذلك الآن .

دولتها الاجتماعية في مصر

كذلك للفكاهة دلالة اجتماعية كدلالاتها السياسة ، إذ تصور أحوال الأفراد والجماعات ، وتكشف عما بين الأفراد من علاقات ، وما بينهم وبين المجموع من صلات ، وتنبئ عن كثير من ألوان الأخلاق والمعادن ، ودعوات المصلحين إلى تغيير الفاسد منها .

١ - وقد مرت بنا أمثلة شتى في أنواع الفكاهة ، نستطيع منها أن نتبين

(١) ديوان حافظ ٥/٢ مزبد : بحر يقذف بالزبد . الحدنان : حوادث الدهر ونواثية .
يمانى : سيف . السمهرى : الرمح . (٢) ديوان حافظ إبراهيم ١٠٩ / ٢

أخلاق بعض الناس ، وطباعهم ، وعقليتهم ، كالبخل والجبن والفرور والغفلة وسرعة البديهة ، والحذقة وغيرها .

ويهمنا الآن أن نحصر بحثنا في دلالة الفكاهة على الأحوال الاجتماعية العامة في مصر ، إيثارا للإيجاز ، واطمئنانا إلى أن في التمثيل بأمة واحدة مغنى وكفاية .

٢ — تدلنا الفكاهة على ما كان يمانيه الأدباء في بعض المصور من فاقة وإهمال وقلة اكتراث ، لأن مواردهم ضيقة ، والملوك القائلين بالأمر ليسوا ممن يطربون للأدب ويشجعون الأدباء .

هذا الإمام البوصيرى (المتوفى سنة ٦٩٥ هـ — ١٢٩٥ م) يصف بؤسه وصفا ساخرا متكاملا ، لكنه قوى الدلالة على شظف عيشه وعيش أولاده :

يا أيها المولى الوزير الذى	أيامه طائفة أمّره
إليك نشكو حالنا إننا	حاشاك من قوم أولى عُسره
في قِلَّةٍ نحن ولكن لنا	عائلة في غاية الكثره
صاموا مع الناس ولكنهم	كانوا لمن أبصرهم عِبره
إن شربوا فالبئر زير لهم	ما برحت والشربة الجره
لهم من الخُبْز مسلوقة	في كل يوم تشبه الدُشْره
أقول مهما اجتمعوا حولها	تنزهوا في الماء والخضره
وأقبل العيد وما عندهم	قمح ولا خبز ولا فُطره
فأرحمهم إن عاينوا كمكة	في كف طفل أو رأوا تمره ^(١)

وهذا نصر الدين الحمami (المتوفى ٧١٢ هـ - ١٣١٢ م) يصف الدار التي سكنها بأنها إحدى الخرائب أو طريق واسع عام، وبأن جدرانها تميل مع النسيم، ولذلك يخاف أن يرفع صوته فيها بإقامة الصلاة، حتى لا تتداعى. وقد سبق ذلك في التهكم الاجتماعى .

وكذلك كان أبو الحسين يحيى الجزار المصرى (المتوفى سنة ١٣٦٧ م) يحترف بالجزارة أول حياته، ولا يحصل منها على رزق يرضيه، وفي ذلك يقول:

حسبي حرافاً^(١) بحرقى حسبي أصبحتُ منها معذب القلب
موسخ الثوب والصحيفة من طول اكتسابي ذباً بلا كسب
أعمل في اللحم للعشاء ولا أنال منه العشاء، فاذنبي؟
خلا فؤادى، وفي فمى وسخ كأننى فى جزارتى كلبي
ثم اشتهر أمره، وترك الشعر، واتصل بالكبراء، ومدحهم. لكنه لم يبلغ ما أراد، فماد إلى الجزارة، وآثرها على صلته بالكبراء الأشحاء، الذين وصفهم بالكلاب فى قوله:

لا تلمنى يا سيدى شرف الدى إذا ما رأيتنى قصباً
كيف لا أشكر الجزارة ماعش ت وأهجر الآدابا
وبها صارت الكلاب رُجبي وبالشعر كنت أرجو الكلابا
وقد عانى حافظ إبراهيم يؤسأ فى أول حياته بعد أن اعتزل خدمة الجيش، لذلك فرح بخلته الجديدة، وارتجل فيها قصيدة سنة ١٩٠٠ ويهمننا من هذه القصيدة تصويره لبؤسه بقوله:

صَحِيبَتْنِي قَبْلَ اصْطِحَابِكَ دَهْرًا بِذَلَّةٍ فِي تَلَوْنِ الْحَرْبَاءِ
 سَبَّوْهَا لَطِيْلَسَانُ ابْنِ حَرْبٍ نَسْبَةً لَمْ تَكُنْ بِذَاتِ افْتِرَاءٍ^(١)
 كُنْتُ فِيهَا إِذَا طَرَقَتْ أَنْاسًا أَنْكَرُونِي كَطَارِقٍ مِنْ وَبَاءِ
 كَسَفِ الدَّهْرِ لَوْنَهَا وَاسْتِمَارَتِ لَوْنَ وَجْهِ الْكَذُوبِ عِنْدَ الْإِقَاءِ
 ثُمَّ يَمُودُ إِلَى مَنَاجَاةِ ثَوْبِهِ الْجَدِيدِ ، وَالسَّخْرِيَّةِ مِنَ الْمَصْرِيِّينَ لِأَنَّهُمْ لَا يُوقِرُونَ
 إِلَّا صَاحِبَ الْمَظْهَرِ الْبَرَّاقِ بِقَوْلِهِ :

يَارْدَانِي جَمَلْتَنِي عِنْدَ قَوْمِي فَوْقَ مَا أَشْتَهَى وَفَوْقَ الرِّجَاءِ
 إِنْ قَوْمِي تَرَوْهُمْ جِدَّةَ الثَّوْبِ بَ وَلَا يَمَسْشِقُونَ غَيْرَ الرِّثْوَاءِ
 قِيَمَةُ الْمَرْءِ عِنْدَهُمْ بَيْنَ ثَوْبٍ بَاهِرٍ لَوْنُهُ وَبَيْنَ حَذَاءِ
 ٣ - وَنَمَحَ وَرَاءَ الْفَسَاكَةِ ضَيْقًا بِالْإِنْفَاقِ الْإِجْتِمَاعِيِّ وَالرِّيَاءِ .

ولهذا الرياء ملامح عدة ، فقد يبدو في مظهر الرجل المتظاهر بالصالح والتقوى والعلم ، وهو مجرد من العلم والتقوى والصالح ، كأولئك الذين كانوا يطلقون لحامهم وليس عندهم ما يبرر إطلاقها من الخلق الكريم أو الورع أو العلم . وقد تهكم بهم كثير من الشعراء ، مثل الحسن البصري المتوفى سنة ١٧٢٩ م في قوله :

رُبَّ قَصِيرٍ فِي الْوَرَى لِحِيَّتِهِ طَوَّلَهَا اللَّهُ بِلا فَائِدَةٍ
 كَأَنَّهَا بَعْضُ لَيَالِي الشِّتَا طَوِيلَةٌ مَظْلَمَةٌ بَارِدَةٍ^(٢)

(١) الطيلسان : كساء أخضر كان يلبسه الخوارج من العلماء . وكان أحمد بن حرب المهلبى قد خلع على الشاعر الحمونى طيلسانا فتهكم به في عدة قصائد كما سبق في (الدعابة) وصار طيلسان ابن حرب مثالا للبي والقدم .
 (٢) تاريخ الجبرتي ٨٠/١

وقول مصطفي صادق الرافعي في صاحب حلية طويلة جداً :

يُطَوِّلُ حَيْثُ كَالْجِبَالِ فَيَا لَيْتَ عَمْرَى مِنْ طَوْلِهَا
كَمُروحة الخيش في العارضينِ تُطَرِّى الهَوَاءَ بِتَبْلِيلِهَا
وقد لَقَّبُوهَا بِسِتِّ اللُّحَى لَتَعْظِيْمِهَا وَلِتَبْجِيلِهَا
أَلَسْتَ تَرَاهَا تَجْرُ الذُّيُولَ فَيَحْظِي الصَّفَارَ بِتَقِيلِهَا ؟
وَكَمْ بَحَثَ النَّاسُ فِي أَصْلِهَا وَأَيُّ الْوَبَا كَانَ فِي جِيلِهَا
وَكَمْ حَكَمُوا أَنَّهَا عِلَّةٌ وَمَا عِلَّةٌ غَيْرُ تَعْمِيلِهَا^(١)

ولقد يبدو النفاق في التلون والمداينة والتقلب في المعاملة ، وكثيرا ما يحدث هذا حيث يرتجى الناس النفع ، أو يخشون الضرر ، أو يتطلعون إلى الاتصال بذى الجاه ، وإن لم يأملوا فيه نفعاً ولا ضرراً ، كما رأيت في أمثلة الحكم الاجتماعي .

وبعد يظهر الرياء في تصابي الشيوخ ، وتعلقهم بصبوات الشباب ، كذلك المهرم الذي كان ضعيف القوى لكنه يغازل ، فقال فيه الجارم :

لَنَا شَيْخٌ تَوَلَّى أَطْيَبَاءَ يَهَيِّمُ بِحُبِّ رَبَّاتِ الْقُدُودِ
يَغَاظِلُ إِذَا يَغَاظِلُ مِنْ قِيَامِ وَإِنْ صَلَّى يَصِلُ مِنْ قُعُودِ^(٢)

٤ — على أن الفكاهة تنبئ عن الجهل المتفشى في الشعب ، وعن الأمية الفكرية ، والاستمساك بالخرافات .

(١) ديوان الرافعي ٢ / ١٠٣

(٢) ديوان الجارم ٤

فالشاعر المصرى البدر الحجازى يسخر من حلقات الذكر التى يقيمها الجهلة
لاعلم عندهم ولا ورع ، وإنما هم يجأرون ويتصايحون ويتأيلون ، ثم يجلسون إلى
القصاص فيلتهمون ما فيها ، كما سبق فى التهمك الاجتماعى .

وهناك أناس يكدون على أضرحة الأولياء ، فيزورونها خاشعين ، ويضعون
فى صناديقها ما يضعون من المال ، وهم فى أشد الحاجة إليه ، على أنهم يبخلون
على الأحياء المعوزين .

يقول حافظ إبراهيم :

أحياءنا لا يُرزقون بدرهم وبألف ألف ترزق الأموات
من لى بحظ النائمين بحفرة قامت على أحجارها الصلوات
يسمى الأنام لها ويمجرى حولها بحُرُ النذور وتُقرأ الآيات
ويقال : هذا القطب باب المصطفى ووسيلة تُقضى بها الحاجات^(١)

٥ — ولقد تدل الفكاهة على أن المجتمع فى فترات من حياته يصاب بضعف
الشخصية ، فينسى مقوماته أو يتناساها ، ويُغنى أوتعمى عن تقاليده النافعة ،
وميراثه العظيم ، ويجعل يحاكي الأتوياء الغالبيين محاكاة لآخر فيها ، بل فيها
الشر والضرر .

حدث هذا فى مصر بعد الاحتلال البريطانى ، فتشبه بعض الناس بالإنجليز
فى زيهم ، وفى عاداتهم ، وفى التواء لسانهم ، وغالى بعض الشبان فى هذه
المحاكاة ، وجرت النساء وراء (الموضة) يحسبن أنها هى التى تزيدهن جمالا
وجلالا .

تبيين هذا من زجل الشيخ محمد النجار (المتوفى أول القرن العشرين) الذى سماه (زجل الموضة) وتبينه فى سخرية الرافى بالنساء المولعات بالميدع (الموضة) وتبديل الأزياء :

ما بالُ هذا الجسم يا فتنَتِي من سَرَقَ الديباج فى حَبْسٍ^(١) ؟
وبعضه فى كفنٍ واسع وبعضه فى ضِيقَةِ الرَّمْسِ ؟
لكل شىء حسنٍ زينةٌ وزينة الخمرة فى كأس
والبدر فى ديباجةٍ يُجْتَلَى وأنت فى عَشْرٍ وفى خمس
شريعةٌ تَنَسَخُ فى يومها كل الذى قد نَرَعَتْ أَمْس
ولو تَزِيدُ الحُسْنَ أَثْوَابُهُ لبان تَقْصُ الحُسْنَ فى الشمس
أهات الغادات أهلَ المَوَى وهن قد هُنَّ على نفسى
فَأَعَيْنُ القومِ وأذيلها (مصلحة) للرش والكَنَسِ^(٢)

أراد بالبيت الأخير أن أنظار الناس تنصبُّ على الفتاة المولعة بالزينة والتبديل كما ينصب الماء من عربة الرش . وذيلها الطويل الذى تجرره وراءها يكس الأرض كأنه عربة كنس .

٦ - ولقد توحى إلينا الفسكاهة بأن المصريين كانوا برمين بالامتيارات الأجنبية التى منحتها الدولة العثمانية للأوروبيين ، لأن أولئك الأوروبيين استغلوا استغلالا دينيًّا ، فطفنوا فى بلادغير بلادهم ، ونظروا إلى المصريين على أنهم الغرباء المستباح ذمارهم ، وابتزوا أموالهم ، واعتدوا على حقوقهم ، وهم آمنون من

(١) سرق الديباج : شق الحير .

(٢) ديوان الرافى ٢ / ٤٠

القصاص العادل ، لأن الحكومة المصرية لاتستطيع ردّ دعهم ، والمحاكم المختلطة لاتنصف المصريين منهم ، وحكوماتهم تمدّ لهم في غرورهم .
وفد نوء بمساوىء الامتيازات بمضى الأجانب أنفسهم مثل كرومر وغورست وكنتشر وملنز^(١) .

من التهمكم بالامتيازات قول حافظ إبراهيم :

وهل في مصر مفخرةٌ سوى الألقاب والزُّنَبِ ؟
وفي الروميّ موعظةٌ لشعب جدّ في اللب
يُقَتِّلُنَا سِلا فَوَدَّ ولا دية ولا رَهَب
ويعشى نحورايته فتحميمه من العطب^(٢)

وكان المصريون يرمين بالمحاكم المختلطة ، لأنها تحكم في ديارهم ، وتحاكم بغير قانونهم ، ولأنها دأت على ممالاة الأجانب وإنصافهم زورا . أما حقوق المصريين فإنها كانت تغفلها وتنام عنها . لذلك سئل طالب بكلية الطب عن مرض النوم ، وهل هو مقصور على أوغنده في وسط إفريقيا ؟ فأجاب لا ، إنه في غيرها أيضاً .
ف قيل له : أين ؟ فأجاب : في مصر .

فسئل : عند من ؟ فقال : عند قضاة المحاكم المختلطة .

وكان محام يترافع في قضية أمام المحكمة المختلطة ، فال الرئيس على أحد الأعضاء وأخذ يحدّثه ، فظن المحامي أنه يستشير في القضية والدفاع ، فسكت عن الكلام حتى يما حديثهما . ولحظ الرئيس ذلك ، فقال للمحامي : استمر أنت ، فلسنا نتداول في قضيتك .

(١) راجع وطنية شوق للمؤلف ٤٦

(٢) ديوان حافظ إبراهيم ١١٠/٢

٧ - وكانوا ضائقين بالْمُرَبِّين الذين يقرضونهم المال بربح فاحش ، وكثيراً ما يستنزفون دماءهم ، ويستلبون عقارهم .

فقد قابل جماعة من الفلاحين يونانيا من أصحاب الربا في يوم قارس البرد ، فاسترعى انتباههم أنه لا يوضع قفازه في يديه كماداته ليحفظهما من البرد . فسأل أحدهم جاره عن ذلك ، فأجابته بأن الرجل ليس محتاجاً إلى قفاز يحفظه عن البرد مادامت يده في جيوبهم .

٨ - ومن أحوال المجتمع التي نستشفها من التهكم والفكاهة كَلَف المصريين بالمظاهر ، كتناقصهم على الرتب والألقاب ، ومغالاتهم في الأعراس والمهور والمآتم وما شاكلها .

قال حافظ إبراهيم :

سكَّ فأصنروا أدبي	وقلت فأكبروا أرْبِي ^(١)
وما أرجوه من بلد	به ضاق الرجاء وبى ؟
وهل في مصر مفخرة	سوى الألقاب والرُّتَب ؟
وذى إرثٍ يكاثُرنا	بمال غير مكتسب
فقل للفاخرين أما	لهذا الفخر من سبب ؟
أروني بينكم رجلاً	رَكِينًا ^(٢) واضح الحَسَب
أروني نصف مخترع	أروني رُبْعَ محتَسِب ^(٣)
أروني نادياً حِفْلاً	بأهل الفضل والأدب

(٢) الركين : الرزين .

(١) الأرب : الغفل

(٣) المحتسب : المراد به العالم بتدبير المال .

فَهَبُوا مِنْ مَرَاقِدِكُمْ فَإِنْ الْوَقْتُ مِنْ ذَهَبٍ
 فَهَذِي أُمَّةٌ إِلَيَا بَا نَجَازَتْ دَارَةَ الشُّهْبِ^(١)
 فَهَامَتْ بِالْعَلَا شَغَفَاً وَهَمْنَا بِابْنَةِ الْعَنْبِ^(٢)
 وقال في مناجاة كسائه الجديد :

يَارْدَائِي جَعَلْتَنِي عِنْدَ قَوْمِي فَوْقَ مَا أَشْتَهَى وَفَوْقَ الرِّجَاءِ
 إِنْ قَوْمِي تَرَوْهُمْ جِدَّةً الثَّوْبِ بَ وَلَا يَمَسُّقُونَ غَيْرَ الرُّثْوَاءِ
 قِيَمَةُ الْمَرْءِ عِنْدَهُمْ بَيْنَ ثَوْبٍ بَاهِرٍ لَوْنُهُ وَبَيْنَ حَذَاءِ^(٣)
 وكثيراً ما ندد حسين شفيق المصري بحب الظهور في أسلوب عامي مضحك،
 لكنه لاذع ونافع في التنفير من هذا المرض الاجتماعي .

١٠ — ثم إن الفكاهة تطلعننا على بؤس الطبقة العاملة الكادحة ، لأنها
 تشقى لتنعم الطبقة الغنية المترفة ، ولا ينال الكادحون من شقوتهم وجهادهم إلا
 الفسات والتُّنْغَاية .

وتطلعننا على مفارقات شتى في المجتمع ، وعلى ضعف الروابط بين
 الأفراد .

وقد أسلفنا ذلك في التَّهْكِيمِ الاجتماعي .

(١) دارة الشهب : منزلة الكواكب
 (٢) ديوان حافظ ٢ / ١١٠ ابنة العنب : الخمر
 (٣) ديوان حافظ ١ / ١٩٤

أما بعد

فهذه دلالات الفكاهة ، بل هذه بعض دلالاتها . وهذه صور من الفكاهة بعضها جاد ، وهناك صور كثيرة أخرى ضاحكة مضحكة ؛ أسلفناها في أنواع الفكاهة بالجزء الأول وبهذا الجزء .

ومن عجب أن الدارسين أغفلوا الفكاهة ، ولم يعقدوا لها دراسة خاصة ، ولم يحملوها بابا من أبواب الشعر أو نوعا من أنواع النثر .
وإنها لجديرة بأن تكون بابا من أبواب الشعر كالغزل والمديح والمجاء ، وجديرة بأن تدرس كما تدرس فنون الشعر والنثر على السواء .

أقاصيص فكاية

هذه ألوانه من الأقاصيص الفطاهية،

روى التاريخ أصولها ، وأضفت إليها

من التفصيل والتحليل والتبديل ما كساها

نوبها الجدير .

سخرية بسخرية *

جلس أبا^ن بن عثمان في حديقة قصر المثمرة المزدهرة مجلسه الفك المعداد ، وكان في جلسائه أشعب الطماع المزاح . ولم يكن يشغل أشعب في مجلسه إذ ذاك إلا الضحك والإضحاك ، والتطلع الطويل إلى عناقيد الكرم المدلاة . وإنه لينظر إليها فيحدث نفسه : متى ينضج فينال منه ما اعتاد أن ينال في كل عام مرات ؟ بل متى يقارب النضج فيذوقه ذوقات ؟ وهو بين الحين والحين يحس ريقه يتحلب^(١) ، ولسانه يتكلم^(٢) ، وفه يتحرك .

ثم أقبل أعرابي ، ومعه جل قوي معجب ، ومر الأعرابي على قرب من الجالسين فأروه جاسياً^(٣) شرساً ينم مظهره عن غضب غاضب ، وشر بيّن ، فأيّدونه منه أحد من الغلمان الذين رأوا جملة فأعجبهم ومشوا وراءه إلا أنه وشتمه . فقال أبا^ن : ادعوا لنا هذا الأعرابي ، لنبلوه^(٤) ، ونعلم من أمره ما قد تنفكه به .

فأسرع إليه غلام من غلمان أبا^ن وقال له : إن الأمير أبا^ن بن عثمان يدعوك . فسأله الأعرابي : ولم ؟ وليس وقتي بمتسع للقاءه .

فقال له الغلام : لا تمجل ، فمسي أن تجد في لقائه خيراً يسرك .

فقال الأعرابي : ما لقيت خيراً في لقاء أحد من الأمراء ، وليس أميرك إلا على شاكلتهم .

* الأصل في نهاية الأرب ٣٤/٤

(١) بتحلب : يسيل

(٢) يتكلم : يتحرك ويتنطق

(٣) جاسياً : جافياً خشناً

(٤) لنبلوه : لنجره

لكن الغلام جعل يحلم عليه ويحاوره ، ومارال به حتى مشى معه إلى الأمير .
فَسَلَّمَ في صوت خشن غليظ كأنه ضَبْعٌ من ضباع البادية مشتمل بِشْمَلَةٍ ، ثم
جلس القُرْفَصَاءُ كأنه في البادية يَصْطَلِي^(١) . فسأله أبان عن نسبه ،
فانتسب له . فقال له يا خالُ ، إني مُنْذُ زمانٍ أَطْلُبُ جِلاماً مثل جلك هذا في ضخامته
وارتفاعه وهامته وقوامه وأخفافه ، والحدُّ لله أن جعل طَلَبْتِي عنْدَكَ ، فهل
تبيّعنِي جلك ؟

فقال الأعرابي : نعم أيها الأمير ، بكم ؟

فقال أبان : بمائة دينار تقبضها الساعة .

فسرَّ الأعرابي ، وانتفخ ، وأيقن أنه قد تفقّل الأمير . وحَدَّثَ نفسه بأن
جمله لا يساوي أكثر من ثلاثين ديناراً ، وإما أن يكون الأمير مضطراً إلى شرائه
لِزِيَّةٍ فيه لم يجدها في غيره حقاً ، وإما أنه جاهل بأمان الإبل ، فلم يسوِّمَ جملة بما
يستحقه ، وإما أن هذا رزق سهلٌ ساقه الله إليه . ونظر أبان إلى الأعرابي فتبين
في وجهه الطمع وأثرُ المفاجأة واستعظامِ الثمن ، فأقبل على أشعب وقال له :
وَيْحَكَ يا أشعب ، إن خالي هذا من أهلك وأقاربك — يريد أنه على شاكلته
في الطمع — فأوسع له مما عنْدَكَ . فأجاب أشعب في خُبْثٍ : نَعَمْ ، وسأزيده
على ما قلت . فقال أبان : يا خال ، إنما زدتك في الثمن على بصيرة من أن الجمل
يساوي ستين ديناراً ، ولكنني بذلت لك مائة دينار ، لقلة النقد عندنا ، وسنعطيك
عروضاً تساوي مائة دينار .

فازداد الأعرابي طمعاً إذ مَنَّيَ نفسه بأن أشعب سيزيده ، وبأنه سيأخذ عروضا
قيمتها أكثر من مائة دينار ، ثم يذهب فيبيعهما بأكثر من قيمتها . فقال : قد
قَبِلْتُ ذلك أيها الأمير .

(١) يصطلي : يستدفق

ومال أبان على أشعب وأسرَّ إليه حديثاً .

فذهب أشعب وعاد يحملُ شيئاً مغطًى ، فقال له أبان : أخرج ما جئتُ به . فأخرج عمامةً باليةً تساوى أربعة دراهم ، فنظر إليها الأعرابي في دهشة وجزع ، وقال أبان لأشعب : قومها يا أشعب . فقال : هذه عمامة الأمير ، يشهد فيها الأعيادَ والأُجَمَع ، ويُلَقَى فيها الخلفاء ، قيمتها خمسون ديناراً . قال له أبان : ضمها بين يدي الأعرابي . فأخذ الأعرابي ينظر إليها مذهولاً ، فاغراً فاه^(١) ، يهيمُ بأن يركبها أو يطوِّحها بيده . لكنه أمسك حتى يرى عاقبة ما يفعل هؤلاء الهجانين . وراعه أن أبانا قال لكتابه . أثبت قيمتها . فكتب قيمتها .

ثم قال أبان : أخرج ما معك يا أشعب . فأخرج قلنسوةً طويلةً باليةً ، قد علاها الوسخ والدُّهن ، لا تساوى غير نصف درهم . فقال أبان : قومها يا أشعب . فقال : قلنسوة ، الأمير تملوها ممتةً ، ويصلى فيها الصلوات الخمس ، ويجلس فيها للحكم ، قيمتها ثلاثون ديناراً . فقال أبان : ضمها بين يدي الأعرابي . وقال لكتابه . أثبت قيمتها . فأرُبد^(٢) وجه الأعرابي ، وجَحَظت عيناؤه ، وفَسَرَ فاه ، وهمَّ بأن يثب من مكانه ، لكنه تماسك ليرى ما بقى من أحوال الهجانين .

ثم قال أبان لأشعب : هات ما بقى عندك . فأخرج خُفَّين خَلَقَيْن^(٣) قد نَصَل لونهما^(٤) ، وذهب بهاؤهما . فقال له أبان : قوم يا أشعب . فقال :

(١) فاغراً فاه : فاتحاً فاه .

(٢) أرُبد : تغير واغبر (٣) خَلَقَيْن : بالين (٤) نصل لونهما : تغير وذهب

خَفُّ الأمير يَظا به الرَّوْضَةُ ، ويملأ به المنبر ، قيمته أربعون ديناراً . فقال
أَبان : ضمه بين يدي الأعرابي . وقال لكَاتبه : أثبت قيمته . فبلغ الغيظ من
الأعرابي مبلغه ، وزجر زجراً قطعها أَبان بقوله : اضممُ إليك متاعك
يا أعرابي . ويا غلام : امض مع الأعرابي ، واقبض لنا ما بقى عليه من ثمن
المتاع الذي أعطيناه ، وهو عشرون ديناراً .

وكان الجالسون مع أَبان يكتمون ضحكاتهم فتهتز أجسامهم ، وينظرون
إلى الأعرابي ولا ينظر بعضهم إلى بعض ؛ مخافة أن يفسد الضحك ، فيفسد
ما دَبَّرَ أَبان وأشعب .

وما أطلقهم من كتمانهم هذا إلا أن الأعرابي أمسك الممامة والقلنسوة
والخفين في حركة سريعة خاطفة ، وضرب بها وجوه القوم في غير مبالاة ،
ونفض كالحجئون ، وجرى إلى بعيره فأخذ بزمامه ومضى ، وهو يصيح :
متاعٌ لا يساوى بمرات ، يريدون أن يُقدِّموه نمنَّا لك .

وأبان حينذاك يضحك حتى سقط ، ومن معه يضحكون حتى سقطوا ،
وأشعب يقول للأعرابي في صوت جهير : عُدْ لزيدك ، فيرد عليه الأعرابي
بقوله : تركت لك الأصل والزيادة ، فاهنأ بما معك من خُلُقَان ، فإنها قيمتك
يا شيطان .

دع حمارك مكانه *

هذا مَعْن بن زائدة في جماعة من خاصته قد ركبوا خيلهم ، وحملوا سلاحهم ، وأمنوا في الصحراء ليصيدوا . وهذا قطع من الأطباء قد عَنَّ لهم ، فتفرقوا في طلبه في كل ناحية . وهذا معن قد انفرد عن أصحابه في طالب ظبي مُعْجِبٍ بامتلائه وبلونه الأبيض كأنه شمع البدر ، وقد ظفر معن به وذبحه . ولما هم بحمله إلى صهوة حصانه رأى شيخا مقبلا على حمار ، فانتظر حتى يبلغه ليعرف خبره ، فلما حاذاه الشيخ سلم عليه ، فرد معن وقال له : من أين يا شيخ ؟ فأجابه : من أرض بعيدة كانت مُجْدِبَةً منذ عشرين سنة ، ثم أَخْصَبَتْ في هذه السنة ، فزرعتها قِثَاءً ، فأخرجتها في غير أوان .

قال معن : وإلى أين ؟ قال الرجل : جمعت من القثاء ما استحسنته ، واصطفيت أحسن ما استحسنت ، وهأنذا قاصدٌ به معن بن زائدة ، لأهديه إليه ، فأنا من كرمه المشهور ، وخيره المشكور .

قال معن : وكَمْ أَمَّنْتُ منه ؟ قال الشيخ : ألف دينار . قال معن : فإن قال لك إن هذا كثير . قال الشيخ : أطلب خمسمائة .

قال معن : فإن استكثرها ؟ قال الشيخ : أطلب ثلاثمائة .

قال معن : فإن استكثرها ؟ قال الشيخ : أطلب مائة .

وأخذ معن يحاوره إلى أن وصل إلى الثلاثين ، فقال له معن : ما أظن إلا أنه يستكثر الثلاثين . قال الشيخ : لا ، ولن أَرْضَى بأقل منها . قال معن : هَبْه قد رفض أن يمطيك ثلاثين لِقَاءَ ما معك من القثاء ، فإذا تصنع ؟ قال

الشيخ : ادْخُلْ قِوَانِمَ حِمَارِي فِي عَيْنِهِ ، وَأَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي خَائِبًا .

فَضَحِكَ مَعْنٍ وَقَالَ لَهُ : لَقَدْ رَأَيْتُ مَعْنًا يَتَصِيدُ مَعَ أَحْبَابِهِ ، وَهَنَالِكَ مُضْرِبُ خِيَامِهِمْ ، وَأَشَارَ إِلَى جِهَةِ الْخِيَامِ ، ثُمَّ وَثَبَ عَلَى حِصَانِهِ ، وَحَمَلَ الْفَزَالَ الَّذِي عَنَاهُ حَتَّى صَادَهُ ، وَسَارَ حَتَّى لَحِقَ بِأَحْبَابِهِ ، وَكَانُوا قَدْ صَادُوا غَزَلَانَا كَثِيرَةً ، فَمَادُوا جَمِيعًا إِلَى مُضْرِبِ خِيَامِهِمْ ، وَأَوْقَدُوا نَارَهُمْ ، وَجَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ . فَقَالَ لَهُمْ مَعْنٌ : سَيَمُرُ بِكُمْ شَيْخٌ عَلَى حِمَارٍ وَمَعَهُ قَتَاةٌ ، وَهُوَ رِيْدِي ، فَعَرَفُوهُ أَنِّي هُنَا ، وَأَدْخَلُوهُ عَلَيَّ .

وَبَعْدَ سَاعَةٍ أَقْبَلَ الرَّجُلُ ، فَلَمَّا صَرَّ بِهِمْ اسْتَدْعَوْهُ ، فَزَلَّ وَهَثُوا لَهُ ، وَسَأَلَهُمْ عَنْ مَعْنٍ ، فَقَالُوا لَهُ : إِنَّهُ هَاهُنَا . وَسَارُوا بِهِ إِلَى خَبَاءٍ مَعْنٍ ، فَدَخَلَ الرَّجُلُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَعْرِفْهُ ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ خَلَعَ مَلَابِسَ الصَّيْدِ ، وَلَبَسَ غَيْرَهَا ، وَبَدَأَ مَهِيئًا جَلِيلًا ، وَخَدَمَهُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ ، فَسَلَّمَ الشَّيْخُ فِي تَوْقِيرٍ وَدَهْشَةٍ مِمَّا رَأَى .

فَقَالَ لَهُ مَعْنٌ : مَا الَّذِي سَيَّرَكَ إِلَيَّ يَا أَخَا الْعَرَبِ ؟ قَالَ الشَّيْخُ : أُمِّلتُ الْأَمِيرَ ، وَجِئْتُ لَهُ بِقَتَاةٍ فِي غَيْرِ أَوَانِهَا . قَالَ مَعْنٌ : وَكَيْفَ ؟ فَحَدَّثَهُ الشَّيْخُ بِأَنَّ أَرْضَهُ أَجْدَبَتْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ، ثُمَّ أَخْصَبَتْ فِي هَذِهِ السَّنَةِ ، فَزَرَعَهَا قَتَاةً ، فَنَبَتَتْ وَأَثْمَرَتْ فِي غَيْرِ أَوَانٍ ، فَجَمَعَ مِنْهَا خَيْرَ مَا أَثْمَرَتْ ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْ هَذَا الَّذِي جَمَعَهُ أَحْسَنَ مَا فِيهِ ، وَوَجَدَ أَنَّ مَعْنًا أَوَّلَى النَّاسِ بِأَنَّ يَقْدَمَ لَهُ هَذِهِ الْحَدِيَّةُ الطَّرِيفَةُ .

فَقَالَ مَعْنٌ : حَسَنًا ، وَكَمْ أُمِّلتُ فِينَا ؟ قَالَ الشَّيْخُ : أَلْفَ دِينَارٍ . قَالَ مَعْنٌ فِي دَهْشَةٍ مُصْطَلِمَةٍ : هَذَا كَثِيرٌ . فَحَدَّثَ الشَّيْخُ نَفْسَهُ بِأَنَّ الصَّيَادَ الَّذِي لَقِيَهُ مِنْذُ قَلِيلٍ كَانَ شَوْمًا عَلَيْهِ ، وَقَالَ : خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ . فَقَالَ مَعْنٌ : وَالْخَمْسَمِائَةُ كَثِيرٌ . فَازْدَادَ الشَّيْخُ سَخَطًا عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي لَقِيَهُ ، لِأَنَّ شَوْمَهُ تَحَقَّقَ . وَمَا زَالَ بِهِ مَعْنٌ إِلَى أَنْ قَالَ : أَرْضِي بِخَمْسِينَ دِينَارًا . فَقَالَ مَعْنٌ : وَهَذَا أَيْضًا كَثِيرٌ يَا أَخَا الْعَرَبِ .

عندئذ قال الشيخ في غضب : لأقل من الثلاثين ، والله لا آخذ أقل من الثلاثين .

فضحك ممن ضحكة عالية ، وقال : وماذا تفعل إن رفض ممن أن يعطيك الثلاثين ؟ فعرف الأعرابي من ضحكه أنه الصياد الذي لقيه ، فقال : ياسيدى إن لم تجب إلى الثلاثين فالبحار مربوط بياب خيائك .

فضحك ممن حتى استلقى على فراشه ، ثم دعا بوكيله فقال له : أعط الشيخ ما ذكره كله : ألفاً ، وخمسمائة ، وثلاثمائة ، وخمسين ، وثلاثين ، ثم زده عشرين لتكمل الألفين .

وأنت ياشيخ ، دع حمارك مكانه ، ولا تقترب به منا ، واقبض الألفين وعدراضياً .

فكاد الشيخ يُنمى عليه من المفاجأة ، وشكر لمن شكر لمن شكر انطلقت به أسارير وجهه وخليجات نفسه ، وعبارات قلبه ولسانه ، وعاد إلى أهله ومعه ألفا دينار ، تعدل أضعاف أضعاف ما أثمرت مزرعته من عدد القثاء .

أعرابي في مدينة*

عاش خالد بن نُومَة الكلابي بالبادية طيلة حياته ، لم يَبْرَحْهَا إلى مدينة ، ولم يَشْهَدْ معالمَ حضارة ، ولم يرَ إلا ما يراه ألدوى الخالص من مناظر البادية وحيوانها ، والضرورى من متاعها . وكان يقضى أيامه بالراعى يَهْشُ على غنمه ، أو يَحْدُو^(١) لإبله ، فصار جافاً خشناً كأنه من الوحش .

ثم حدث يوماً أن انتَجَعَ^(٢) ناحية الشام ، وقصد إلى قرية ليقضى بعض حاجته ، ومكث بها ليلة ، ثم عاد يقص هذا الحديث :

رأيت دوراً مبنية ، لها أبواب وسقوف ونوافذ ، فكانها الحصون التى يتحدثون عنها . ورأيت فى طرفاتها ناساً كثيرين ، يمشى بعضهم فى إثر بعض ، وعليهم ثياب مختلفة الألوان كأنها الزُّهُرُ ، فقلت فى نفسى : هذا أحد العيدَيْن : عيدِ الفطير ، أو عيد الأَضْحَى . ثم رجعت إلى صوابى ، فتذكرت أنى غادرت البادية فى شهر صَفَر ، وقد مضى العيدان قبل ذلك ، فليس اليوم عيداً ، وإنما لبس القوم جديدهم هذا لسبب آخر .

وبينما أنا واقف مدهوش جاءنى رجل ، وسلم علىّ ، وقال لى : يظهر أنك غريب عن هذا البلد يا أعرابي . فقلت : نعم أدام الله عليكم نعمة الحضارة . فأخذنى معه ، وأدخلنى دراً قَوْرَاءَ^(٣) ، فرأيت ناساً فى أبهى الحُلُل ، من كبار وشبان ، ورأيت أطفالاً وغلماناً يَرْبِطُونَ^(٤) ، ويُقْبِلُونَ ويُدْبِرُونَ . ثم أدخلنى حجرة

* الأصل فى الأغاني ٣٣/١٢

(١) يحْدُو : يغى لها اتسرع
(٢) انتجع : قصد مكاناً به كلاً .
(٣) قوراء : واسعة
(٤) يربطون : يصيحون بأصوات محتلطة .

في الدار قد فرشت بفراش لم أشهد مثله من قبل ، وفي وسطها شاب وسيم الطلعة ، جميل الزى ، كثير البسمات ، والناس حوله سباطان^(١) يمرحون ويتضاحكون . فقلت في نفسي : هذا هو الأمير في يوم حفله الذي حكي لنا ، وهؤلاء هم حاشيته وغلمانه . فلما قرأت منه ، قلت له : السلام عليك أيها الأمير . فجذب الرجل يدي ، وقال لي في صوت خافت : اجلس ، فإنه ليس أميرا . فدعشت وقلت : ومن هو أعزك الله ؟ فقال : عروس^٢ . فقلت في نفسي : يالآل مجب : رب عروس رأيته بالبادية أهون على أهله وعلى الناس من بعرة بعير .

وفيا أنا ذهل^٣ مدهوش دعينا إلى بهو فسيح ، وأجلسنا على حشايا كأنما حشيت بريش النعام ، لو أن لي مثلها على رجلي بعيرى لجئت به ما بين بصرى وعدن ، من غير أن أشكو أيأ^(٤) . ولم نلبث إلا قليلا حتى دخل علينا رجال يحملون أواني ، بعضها خفيف يحملونه حملا ، وبعضها كبير ثقيل يدحرجونه ، فوضعوها أمامنا^٥ وحمَلَتْ^(٦) القوم حولها ، فإذا هي لحوم وثريد وألوان^٧ من الطعام لم أعرفها : ثم أتوا بحرق بيض ، اصعة البياض ؛ متلاحة النسيج ، لا يبين منها سدى ولا لحمة^(٨) ، مستديرة^٩ كأن كلال^{١٠} منها البدر ليلة تمامه ، رخصة تنثني . فهممت أرأطلب منها واحدة لأرفع بها قبصى . فلما بسطوها بين أيدينا أمبل القوم عليها يمزقونها في سهولة ؛ ويقطعونها في يسر ؛ وإذا هي فيما زعموا صنف^{١١} من الخبز لاعهد لي بمثله . فلما ذقته وجدته حلوا المذاق

(١) سباطان : سفان (٢) الأبن : التعب .

(٣) تملق القوم : جلسوا حلقات .

(٤) السدى : الحيوط الطولية في النسيج . اللحمة : الحيوط العرضية فيه .

(م — ٩ الفكاهة في الأدب ج ٢)

طَيِّبَ الرَّائِحَةِ ، سهل المضغ ، سريع الازدرداد^(١) .

وتتابعت ألوان الطعام بين حُحارٍ وحامض^(٢) ، وبارد ، وكلها جديد على^٣ ، لولا إقبال القوم عليه ما عَرَفْتُ أنه طعام يؤكل . فأكثر وأكثرت ، وأنا لا أتذكر ما في عقبه من الشَّخْمَةِ . ثم جاءوا لنا بشراب أحمر ، وأخذوا يصبونه في كئوس تَشِفُّ^(٤) عن حمرة شفيفا ، فقلت لصاحبي : لا حاجة بي إلى هذا الشراب ، فإني أخاف أن يقتلني . فَبَدَرَنِي^(٥) بقوله : يا أعرابي إنك قد أكثرت من الطعام ، وإن شربت الماء انتفخ بطنك ، وسال . فلما ذكر ذلك تذكرت ما كان أوصاني به أبي والأشياخ من أهلي ، إذ قالوا : لا تزال سليما مادام بطنك شديدا ، فإذا سال فقد قَرُبَتْ المنية ، فأَوْصِرْ وَصَاةَ المودِّع . فشربت من ذلك الشراب الأحمر لأتداوى به ، وجعلت أكثُر منه ، وكلما أكثرت استحلته فاستتردت ، إلى أن تداخلني سَلَفٌ وزَهْوٌ^(٥) لا أعرفه من نفسي ، ونَشْوَةٌ لا عهد لي بها ، وحسبتُ أني قادر على أي أمر أريد ، فلو أردت أن أنال السقف لنلته ، ولو صارت الأسد لصرعته . وجعلتُ أحدث نفسي بأن أشتم صاحبي الذي جاء بي إلى هذا المجلس ، أو أكرِّه^(٦) وكزة تَهَنِّئُ^(٧) أنفه ، أو تَهَنِّئُ^(٧) فيه .

وإذ أنا كذلك دخل علينا ثلاثة : أحدهم استخرج من كمه قصبة مُجْوَفَةٌ سوداء بها ثقوب مستديرة ، فوضعهما على فيه ، وحرك أنامله على ثقبها ، فأخرج أصواتا مُشْجِيَةً ، وكلما نقل أنامله أتى بأصوات متلعة يشاكل بعضها بعضاً . فقلت لصاحبي : ما هذه أعزك الله ؟ فقال لي : هذا هو الناي .

(٢) حامض : فيه ملوحة ومرارة

(١) الازدرداد : البلع

(٣) تشف : ترق فيظهر ما فيها

(٥) الصلف والزمو : للسكبر والظمنة

(٤) يدري : عاجلي

(٧) تهنئ : تسقط مقدم أسنانه

(٦) أكرهه : أضربه بجمع كني

وأخرج الثاني من قيصه دائرتين صفراوين صغيرتين تلهمان ، كأنهما ديناران ، وجعل يَصْنِفُ^(١) إحداهما بالأخرى ، وخالط برنينه ألحان الأول ، فانسقت من لحنهما معانفات تَسْتَخَفُّ الرزين . فلت على صاحبي وقلت له : وما تلك أعزك الله ؟ فقال لي : هذا هو الصَّنَجُ^(٢) يا أعرابي .

ولم يكد يُتِمُّ جوابه حتى انبرى الثالث في سرواله القصير ، فجعل يَنْقُزُ قَفَزَاتٍ رشيقات سريعات كأنما يَنْبُ على ظهور الحيات ، ثم ارتعى على ظهره وَتَكَوَّرَ في سرعة ، وثنى رجليه إلى أعلى ، فتنقوستا حتى سبقنا رأسه ، ونهض كأنه السهم . حَذَفَهُ^(٣) القوم بالدراهم ، حتى لحسبت أنه جَمَعَ ثَمَنَ فحل من الإبل . ولم أشأ أن أسأل صاحبي عن هذا الرجل ، حتى لا يظن بي الجهل بكل شيء .

وإذ نحن كذلك دخل شاب وَسِيمٌ ، فَمَلَّتْ الأصوات بالثناء عليه ، والسرور بِمَقْدَمِهِ . فحياها لطف تحية ، ثم خرج وجاء بخشبة مُسَوَّاة لها في صدرها عينان ، وعلى جانبيها آذان ، وعلى صدرها وبطنها أوتار دِقَاقٍ مشدودة الأطراف ، ثم عَرَكَ^(٤) آذانها ، وَنَقَرَ بأنامله على أوتارها ، فَرَنَتْ ، ثم أخرج من عنقها عودا ، وجعل يَلْمَسُ أوتارها في خفة بالعود الذي معه ، فَفَغَمَتْ أنغاما عجيبة ، وغنى بقول عُرْوَةَ بنِ حِزَام :

ألا ليت كل اثنين بينهما هوى من الناس والأنعام يلتقيان
هوى نافتى خلقى وقدامى الهوى وإني وإياها لمختلفان

(١) يصفى : يضرب

(٢) الصنج : قطعتان مستديرتان من نحاس أصفر تضرب إحداهما بالأخرى

(٣) حذفه : رماه

(٤) عرك : دلك وحك

يقول لى الأصحاب إذ يَمْذُونَنِي أَشوقُ عِرَاقِي وَأَنْتَ يَمَانِي ؟
فأطرب القومَ ، حتى صاحوا صيحات الاستحسان ووثب بعضهم من
مجلسه وثبأ .

أما أنا فقد وثبت إليه ، وجلست بين يديه ، ولم أعبأ بضحك القوم مني ،
وَتَنَدَّرُمَ عَلَيَّ ، وقلت له : بأبي أنت وأمي ، ما هذه الدابة التي ممك ؟ فلست
أعرف مثلها للأعراب ، وما أحسبُ إلا أنها خُلِقَتْ قَرِيبَا ، ولم تشكأ حتى
تصل إلينا . فضحك وقال : هذا هو البرُّ بَطْ^(١) . فقلت له : كلمة غريبة لمخلوق
عجيب . وكُنِيتَ بقولي : بأبي أنت وأمي ، وما هذا الخيط الأسفل ؟ قال :
إنه الزُّير . قلت : والذي يليه ؟ قال : المُمْنَى . قلت : فالثالث والله ؟ قال : المُمْلَث .
قلت : فالرابع أعزَّك الله ؟ قال : ذلك السِّبْ^(٢) . فقلت : آمنت بالله أولا ،
وبك ثانيا ، وبالبربط ثالثا ، وبالسِّبْ رابعا .

فضحك حتى كاد يسقط ، وضحك القوم وزاطوا ، وجعلت أضحك معهم ،
وأعجب من جهلي .

(٢) الزير والمثنى واليم : أوتار في العود

(١) البربط : العود

حِيلٌ لَا تَنفَدُ

حدثوا أن أزهراً بن سعاد الباهلي^١ المشهور بالسَّمَّان كان صديقاً لأبي جعفر المنصور ، قبل أن أن تصير الخلافة إلى بني العباس ، وكانا يطلبان العلم ويسمعان الحديث الشريف معاً ، وكانا يسافران في طلب العلم والحديث ، ويفتربان معاً ، وكان المنصور يألف أزهراً ويأنس إليه ، ويُصنِّفُ فيه الود ، فيزداد أزهراً حباً للمنصور وإخلاصاً له .

وقد بكرأ يوماً إلى خارج البصرة ليستمتعا بمناظر الطبيعة ، ويملاّ رثتهما من الهواء النقي المصفى ، وكانت الشمس ترسل أشعتها الأولى فتسرب من خلال جذوع النخل وسيقان الشجر وأوراق الأفنان كأنها سهام تتفلّت ، أو رماح تندسس^(١) . وكانت دور البصرة لا تزال تحتفي خلف غلايل رفاق من الضباب ، فيخيّل إليهما أنها حسناء تتوارى خلف ستائر حريرية بقصرها الشامخ . وكان النسيم بليلاً منعشاً عطراً بأريج الأزهار التي مرّ بها . فامتلاّت نفس المنصور وأزهراً بهجةً وصفاء ونشوة ، وأخذا يتحدثان بأمالهما ، ويرسمان صوراً قاتنة لمستقبلهما .

وفيما هما يتحدثان قال أزهراً لصديقه : لو آلت الخلافة إليك فماذا يكون قدرى عندك ؟ فقال له المنصور في حسرة : كأنك لا تعلم أن بيني وبين الخلافة ما بين السماء والأرض من البعد ، فالخلافة الآن في قبضة بني أمية ، وهم حراس عليها أرضاء بها ، وبني العباس كما ترى مشتتون في الآفاق ، مُسْتَضْمَفُونَ

* الأصل في مروج الذهب للمسعودي ٢/٢٣٧

(١) تندسس : تسلل لتختفي .

في الأرض ، فليست لهم قدرة على خلع بنى أمية ، وليس لغير بنى العباس من المسلمين صوت أقوى من صوت بنى العباس .

قال أزهر : يا صديقي أنا أسألك ، وأقول لك (لو ...) . فقال المنصور : الإجابة إنما تكون عن أمر ممكن . فقال أزهر : افرض أن هذا ممكن ، فإذا تكون مكانتي إن حدث هذا الأمر ؟ .

قال المنصور : لا تُضجرني^(١) يا أزهر ، فإن سيورة الخلافة إلى بنى العباس أمر مستحيل ، ووصولها إليّ أنا بعد ذلك مستحيل آخر .

قال أزهر : عجباً لك يا صديقي ، أما درسنا على شيخنا بالأمس فروضاً وأجوبة على هذه الفروض ؟ ألم نكن نَسْخَرُ من بعض الفروض التي درسناها ، ثم تَبَيَّنَ لنا أن بعضها حدث فعلاً ، وأن الذي لم يحدث في ديارنا ربما حدث في غيرها ، وأن الذي لم يحدث إلى اليوم قد يحدث غدا ؟ .

قال المنصور : إن تلك أَدْخَلُ في باب النوادر والمصادفات . فقال أزهر : افرض أن سؤالي هذا من قبيل النوادر والمصادفات .

قال المنصور : فأنت مصرٌّ على الجواب ؟ قال أزهر : نعم . فتوقف المنصور عن السير ، وواجه أزهر قائلاً : لو صرتُ خائفة لأبقيت لك على الود ، وقضيت لك كل رجاء .

فصفق أزهر ، وقال في سرور ظاهر : لا تنس وعدك هذا يا أمير المؤمنين . ففجل المنصور وقال لأزهر : أكان إصرارك على الجواب لتَتَنَدَّرَ^(٢) على بهذا اللقب يا خبيث ؟ فَرَبَّتْ أزهر على صدر صديقه ، وأكد له أنه لا يتندر ، وإنما يتخيل ماسيق لو وقع ، ولعل الزمان يحقق ما يتخيله ، وما عليهما بأس في أن يَلْهُوَا ساعة في هذه البُكرة اللطيفة .

(١) لا تضجرني : لا تستعجني وتضايقني (٢) تندر عليه : تفك ومزح .

أخذت الأعوام تمر تباعا ، وأخذ المنصور وأزهر يكسبران ، ثم وخَطَّ^(١) الشيب رأسيهما ، وشغلتهما الحياة بملوها ومرها ، ونسى كل منهما ذلك الحديث القديم البعيد .

ثم سقط بنو أمية ، وآلت الخلافة إلى بني العباس ، وبعد حين أَفْضَتْ إلى المنصور سنة ١٣٦ هـ فتذكر أزهر حديثه القديم مع صديقه ، وشخص إليه مسرعا ، فتلقيه المنصور بحفاوة ، وسأله عن زوجته باسمها وعن بناته بأسمائهن ، لأنه كان يعرفهن بأسمائهن ، فطمأنه أزهر عليهن ، ومال عليه في دالة الصديق القديم ، وقال له : ألم تزل على ذُكْر من وعدك ؟ فضحك المنصور ، وأكد له أنه ما زال على ذكر من وعده . وقال له : اطلب حاجتك يا أزهر . لقد كانت أمنيتك رميةً من غير رام . قال أزهر : إنما يعنيني من الرمية أنها أصابت ، وليس يعنيني أنها أصابت مصادفة أو غير مصادفة . قال المنصور : إن عجبى لا ينقطع من سؤالك القديم وإصرارك عليه . فقال أزهر : وإن عجبى لا ينقطع من سؤالي وإصرارى على أن تجيبني ، لكأنما قد صَفَتْ رُوحى فى ذلك الصباح المشرق الوحى ، فاخترت ما وراء الحجب ، فاطَّلعت على بعض الغيب . وإنى لسميد أن تَحَقِّقَ تَحْيِيلِي .

قال المنصور : والآن اطلب حاجتك كما تواعدنا . فرفع أزهر رأسه ، وقال للمنصور : إنما جئت مهتئا لا راجيا . فوصله المنصور - على بخله - بأربعة آلاف درهم ، وأمره ألا يَقْدَمَ عليه مُسْتَمِجًا^(٢) . فأخذها أزهر ، وهو يظن أن المنصور يداعبه بأمره هذا .

فلما مضى عام قصد أزهر المنصور ، فلم يَلْقَهُ بالحفاوة التى كان قد لقيه بها فى المرة السابقة ، وقال له : ألم آمرك ألا تَقْدَمَ على مُسْتَمِجًا ؟

(١) وخطه الشيب : خالط رأسه أو انشرف فيه (٢) مستميجا : طالبا للعطاء

فقال أزهري : إنما جئت إليك مسلماً ، ومجدداً لمهد الصداقة . قال المنصور : ما أظن ذلك . وأمر له بأربعة آلاف درهم ، وأمره ألا يصير إليه مسلماً ولا مستميحاً .

ثم كان عام ، فوفد أزهري على المنصور ، فلما استأذن ورأى تَجَمُّهُمَ المنصور قال له : لم أقدم عليك مسلماً ولا مستميحاً ، وإنما بلغني أن علة عَرَضَتْ لك ، فجئت لأعودك وأطمئن على شفائك ، وأدعو الله أن يتيق بك شر الملل . قال المنصور : لست أظن إلا أنك أتيت مستميحاً . وأمر له بأربعة آلاف درهم ، على أن تكون آخر منحة مهما يكن سبب قدومه .

فلما انقضى حَوْلُ أَلْحٍ على أزهري بناته وزوجته أن يشخص إلى صديقه المنصور ؛ لأن الحاجة أَضَرَّتْ بهن . فرفض أن يستجيب لهن . لكنهن مازلن به يشجعنه على السير ، ويؤكدن له أنه لن يعود خائباً . فقال لهن : ويحككن ، ماذا عساي أن أقول له هذه المرة ، وقد استنفدت فيما مضى أسباب الوفاة كلها ؟ قلت له : أتيتك مهنتاً ، وأتيتك مسلماً ، وأتيتك عائداً ؟ فبم أحتج ؟ فقلن له : لا شأن لنا بالسبب ، ولكننا نريد أن تَفِدَّ عليه وتعود إلينا بعبائهم .

فخرج أزهري ودخل على المنصور ، فإذا به أشد ما رآه تجهماً وغضباً . فبادره بقوله : لم آتاك مهنتاً ولا مسلماً ولا عائداً ولا مستميحاً . فصاح فيه المنصور : فلم جئت إذا ؟ قال أزهري : جئت لسماع حديث كذا سمعناه معاً من فلان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيه اسم من أسماء الله تعالى ، من سأل به ربه لم يُجَبَّ دعوته .

فقال المنصور في غضب : يا أزهري لا تبحث عن هذا الحديث ، فلقد جربته فوجدته غير مستجاب .

قال أزهري : وكيف فاك ؟ .

قال المنصور : سألت الله منذ جئتني أول مرة ألا ترجع إليَّ ، وسألته
خى كل مرة ألا يردك عليَّ ، وهأنت ذا ترجع ، ولك فى كل مرة تَمَلَّةٌ^(١) ،
وأحسبُ أن تَمَلًّا تَكْ لا تَنفد . فخذ أربعة آلاف درهم ، وتعال إليَّ متى
شئت ، فقد أعييتنى فىك الحيلة .

(١) تَمَلَّة : عنبر مصطنع .

إيحاء

تعال معي نرجع بالخيال إلى الوراء فَتَطْوَى القرون حتى نَبْلُغَ سنة مائة وثمان وخمسين للهجرة (٧٨٥م) ، إذ تَوَلَّى المهديُّ الخلافة بعد أبيه المنصور، وإذا أخذ القصر زينته ، وازدحم بالوافدين على الخليفة الجديد ليهنئوه عن صدق ، أو عن نفاق ، أو عن زُلفي^(١) وتنافس على شرف المثول بين يديه .

وكان في بغداد شيخ ذكي الفؤاد واسع الحيلة لطيف آلدخل ، ليس له من شرف الحسب ما يؤهله لتهنئة الخليفة كما هنأ ذوو الحسب ، وليس له من الجاه ما يكفلُ له إكرامَ وفادته ولطف الحُجَّاب معه . لكنه يريد أن يَلْقَى الخليفة المهدي ، لاليهنئه فحسب ، بل ليهنئه ، ولينال عطاءه بغير شعير مُنشدّه ، أو غناء يَرُدُّدُه ، وليفاخر الناسَ بأنه لقي الخليفة وهنأه .

فماذا يفعل سعيد بن عثمان ؟

لقد أبس جيبته وعمامته ، وبدا في منظره مهيب الطلعة ، وقور السمّت^(٢) ، وزاده مهابة ووقاراً لحيتته الطويلة المرسلة المنسقة ، وسُبُحْتِه التي يحملها في يده ، ويداعب حباتها بأنامله ، ومشيئته المتشددة الرزينة .

وكان قد دَبَّرَ الحيلة التي تَوَصَّلَ به إلى الخليفة ، ومضى في طريقه صَوْبَ القصر حتى بلغه ، ثم انتقل من مُشرَطِيٍّ إلى آخر إلى حاجب ، حتى بلغ الربيع كبير الحُجَّاب .

(*) الأصل في الأذكياء لابن الجوزي ٥٩ .

(١) زلفى . تقرب (٢) السمّت : المنظر الحسن .

وكان الربيع ذا تجربة وذكاء ، لا تَحْدَعُه المظاهر ، ولا يُؤْخَذُ بِجَهْلِ الأَربَاءِ ، وَهَيْبَةُ السَّمْتِ ، فَتَلْقَى الشَّيْخَ مِثْلَ اعْتَادِ أَنْ يَتَلَقَى نَظْرَاءَهُ مِنْ الْوَافِدِينَ لِقَضَاءِ الْحَاجَاتِ ، أَوْ رَفْعِ الظُّلَامَاتِ ، أَوْ طَلَبِ الْأَعْطِيَّاتِ . ثُمَّ سَأَلَهُ عَمَّا يَرِيدُ ، فَأَبْتَسَمَ الشَّيْخُ سَمْعِيدًا وَقَالَ : أُرِيدُ لِقَاءَ الْخَلِيفَةِ الْمَهْدِيِّ .

فَقَالَ لَهُ الرَّبِيعُ : وَمَاذَا تَبْتَغِي مِنْ لِقَائِهِ ؟

فَقَالَ الشَّيْخُ : أُرِيدُ أَنْ أُقْصَّ عَلَيْهِ رُؤْيَا صَالِحَةٍ ، فِيهَا أَنْسُ نَفْسَهُ ، وَبِهَيْجَةِ قَلْبِهِ ، رَأَيْتُهَا لَهُ أَمْسَ وَأَنَا نَائِمٌ عَلَى وَضُوءٍ . وَأَخَذَ يَدَاعِبُ سَبْحَتَهُ ، وَيُلْحَقُ حَبَاتِهَا بِبَعْضِهَا بِيَعْضٍ فِي وَفْعٍ مُنْتَظَمٍ ، وَمَسَحَ بِيَدِهِ عَيْنُونَهُ (١) الطَّوِيلَ مَسْحَةً تُنْبِئُ عَنْ صَلَاحٍ وَصَدَقَ .

لَكِنِ الرَّبِيعُ لَمْ يَنْخَدِعْ بِمَا رَأَى وَسَمِعَ ، فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، إِنْ النَّاسَ لَا يَصْدَقُونَ رُؤْيَاهُمْ لِأَنفُسِهِمْ ، فَكَيْفَ يَصْدَقُونَ مَا يَرَاهُمْ سَوَامٌ ؟ أَجَدْرُ بَكَ أَنْ تَحْتَمِلَ بِحِيلَةٍ أُخْرَى خَيْرَ مِنْ هَذِهِ الْحِيلَةِ .

عِنْدَئِذٍ تَظَاهَرَ الشَّيْخُ بِالْغَضَبِ الْمَهَادِي ، وَالْعِتَابِ الرَّقِيقِ ، وَقَالَ لِلرَّبِيعِ : إِنْ لَمْ تُخْبِرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَغْبَتِي فِي الْمَثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ لِأَزْفِ الرُّؤْيَا إِلَيْهِ لَمْ أَعْدَمْ أَنْ آتِخُذَ إِلَيْهِ طَرِيقًا آخَرَ ، فَأُقْصَّ عَلَيْهِ رُؤْيَايَ ، فَإِذَا مَا طَرَبَ لَهَا أَعْدَتَهُ أَنْتَ حُلَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَ التَّعْجِيلِ بِمَسْرَعَتِهِ .

وَهُنَا دَاعَبَ سَبْحَتَهُ فِي قُوَّةٍ ، وَدَارَكَ (٢) بَيْنَ حَبَاتِهَا فِي سُرْعَةٍ ، وَلَسَ عَيْنُونُهُ لَمَسَةً خَفِيفَةً ، وَنَظَرَ إِلَى الرَّبِيعِ نَظْرَةَ الْوَائِقِ الَّتِي قَدْ أَنْذَرَ .

فَفَكَّرَ الرَّبِيعُ بَرَهَةً ، لَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَظْهَرَ بِالْخُوفِ أَوْ بِالضَّعْفِ

(١) العُثُونُ : اللَّحْيَةُ

(٢) دَارَكَ حَبَاتِهَا : أَلْحَقَ بِبَعْضِهَا بِيَعْضٍ

فداعب الشيخ بقوله : أرجو أن تكون رؤياك صادقة التأويل ، ويسرنى أن أسممها منك لأشترك معك في تعبیرها ، فإن لى بتعبير الرؤيا الصادقة بعضَ العلم .

فقال الشيخ : إنها لصادقة التأويل ، ولكنى آليت ^(١) ألا أقصها أول القصص إلا على صاحبها الذى سبقت إليه ، ليسمعها جديدة لم تَطْرُقَ سِماً قبل سمعه .

فدخل الربيع على المهدي قائلاً : يا أمير المؤمنين ، إنكم بنى العباس قد أطعمتم فيكم الناس ، فاحتالوا لكم بكل حيلة .

قال المهدي : ما وراءك يا ربيع ؟ فقال : رجلٌ بانباب يزعم أنه رأى لأمر المؤمنين رؤيا طيبة ، ويحبُّ أن يقصها عليه .

قال المهدي : ويحك يا ربيع ، إني لأرى الرؤيا لنفسى فلا تتحقق ، فكيف إذا ادعاها رجل ربما لفَّقها ؟

وهنا انتفخ الربيع ، وأحس أنه يوشك أن يثار من الشيخ الملحاح ^(٢) ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد قلت للرجل مثل هذا القول فلم يقبل ، وحاولت أن أردّه فألَحَّ .

وكأنما كان تذرير الربيع من الرجل ، وإخباره للخليفة بإصراره على أن يلقاه ، باعثاً على شوق المهدي إلى رؤيته ، وتطلعه لسماع رؤياه . فقال للربيع : أدخل الرجل .

فأدخل سعيد بن عثمان إلى المهدي ، فى بَزَّتِهِ الحسنة ، ولحيته العظيمة ، وعمامته الكبيرة . وكان الشيخ فصيح اللسان ، ناصع البيان ، فسلم على الخليفة

في طلاقة ورباطة جَنَان^(١) . فقال له المهدي : ماذا رأيت لنا بارك الله عليك ؟ قال سميد بن عثمان : يا أمير المؤمنين ، نمت الليلة على وضوء ، فرأيت فتاة حسناء لم أر مثلها قط ، ولم أسمع بمثل وصفها قط ، رأيتها في حلة بيضاء كأشعة الشمس . تَسْعَى إِلَى ، لَا تَمْسُ قَدَمَاهَا الْأَرْضَ ، وَإِنَّمَا تَطِيرُ كَمَا تَطِيرُ الْقَطَاةُ ، فَلَمَّا دَنَتْ مِنِّي قَالَتْ لِي : قُمْ يَا سَمِيدُ بْنُ عَثْمَانَ فَبَشِّرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَهْدِيَّ أَنَّهُ يَعِيشُ فِي الْخِلَافَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَسَأُرِيهِ فِي اللَّيْلَةِ الْمُقْبِلَةِ صَدُوقَ بِلَاغِكَ ، إِذْ يَرَى فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ يُقَلَّبُ لَأَلَى ، قَدْ وَهَبَتْ لَهُ ، ثُمَّ يَجْعُدُهَا أَرْبَعِينَ لَوْلَاةً . قال المهدي : مَا أَحْسَنَ مَا رَأَيْتَ يَا شَيْخَ ، وَسَنَمْتَحَنُ فِي لَيْلَتِنَا الْمُقْبِلَةِ رُؤْيَاكَ ، فَإِنْ رَأَيْنَا مَا ذَكَرْتَ أُعْطِينَاكَ مَا تَرِيدُ حَتَّى تَطِيبَ نَفْسَكَ ، وَإِنْ لَمْ تَرَ شَيْئًا لَمْ نَعَاقِبْكَ ، لَأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الرُّؤْيَا قَدْ تَصَدُّقٌ ، وَقَدْ تَكْذُوبٌ .

قال سميد : يا أمير المؤمنين ، إِنِّي لَوَائِقُ مِنْ صَدَقِ رُؤْيَايَ ، وَوَائِقُ أَنَّكَ سَتَرَى فِي مَنَامِكَ بَدْرَةً^(٢) مِنَ اللَّوْلُؤِ كَأَنَّهَا قَدْ وَهَبَتْ لَكَ ثُمَّ تَعُدُّهَا فَتَجْعُدُهَا أَرْبَعِينَ لَوْلَاةً .

لَكِنِ انْظُرْ مَاذَا أَصْنَعُ إِذَا صَرْتُ إِلَى مَنْزِلِي وَعِيَالِي فَأُخْبِرْتَهُمْ أَنِّي كُنْتُ السَّاعَةَ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَزْفَ إِلَيْهِ بِشْرِي ، ثُمَّ رَجَعْتُ خَالِي الْيَدَيْنِ ؟

قال المهدي : فَاذًا نَعْمَلُ ؟

قال سميد : يُعَجَّلُ لِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُ مَا سَيَكْفُنِي بِهِ ، وَسَأُحْضِرُ إِلَيْهِ غَدًا ؛ لِأَجْدِهِ قَدْ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ بَدْرَةً مِنَ اللَّوْلُؤِ قَدْ وَهَبَتْ لَهُ ، ثُمَّ عُدَّهَا فَوَجَدَهَا أَرْبَعِينَ لَوْلَاةً ، وَحِينَئِذْ يُكْمَلُ لِي الْمَكْفَاةُ وَيَزِيدُ فِيهَا مَا يَشَاءُ .

(١) الجنان : القلب .

(٢) البدر : كبس فيه دراهم أو دنانير ، والمراد هنا كبس فيه لؤلؤ .

قال المهدي : من أنت أيها الشيخ الظريف ؟

قال الشيخ : أنا سعيد بن عثمان .

قال المهدي : أعطوه عشرة آلاف درهم ، واطلبوا منه كافلاً^(١) . ليحضر

في الغد .

فَقَدَّمَ الخازن الدراهم إلى سعيد ، وطالبه بكفيل ، فنظر حوله فرأى خادماً من خدام أمير المؤمنين حسن الوجه جميل الزِّي ، فقال للخازن : هذا يَكْفُلُنِي . فقال الخازن للخادم : أَتَكْفُلُهُ ؟ فاحمرَّ وجهه خجلاً ، وقال : نعم أنا له كافل .

خرج سعيد بن عثمان يَتِيهِ^(٢) بِلِقَائِهِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ويفرح أعظم الفرح بالدراهم التي نالها في غير جهد ، ويأمل أن ينال أضافها في غده . ومشى إلى منزله في خَيْلٍ ، بمعنى نفسه بالنعمة وبالثراء وعظم الجاه .

وما كادت زوجه تفتح له باب الدار حتى غلبته نشوة الفرح ، فأخرج عشرة آلاف الدرهم ، ولوحَّ بها أمامها في زَهْوٍ وَمَسْرَةٍ ، وحدثها بما صنع ، فازدادت بدهائه إعجاباً ، فقد جربته من قبل بارع الحيلة ، ناجح الوسيلة . غير أنها خشيت ألا يرى أمير المؤمنين الرؤيا التي وعده بها سعيد فطمأنها ، وقال لها : إِنْ عَلِمَ ذلك عنك بعيب ، فاشغلي نفسك بما تعرفين من إعداد الطعام ، وفراش الدار .

نام المهدي ليلته ، فرأى ما ذكره له سعيد ، وصحاً من نومه مبكراً منثنيّاً نشيطاً ، ومع الضحكان سعيد بالباب يستأذن ، فأذن له ، فلما رآه المهدي قال : أين مصداق ما زعمت لنا ؟

(١) كافلاً : ضامناً . (٢) يتيه : يتعاضد .

قال سعيد : وماذا رأى أمير المؤمنين الليلة ؟

فضحك المهدي وقال : قد والله رأيتُ ما قلتَ .

فكاد سعيد بن عثمان يطير فرحاً وزَّهوا ، وقال : الله أكبر ، صدَّقَتْنِي الحسنة وعدَّها ، وسوف تُصدِّق الأيامُ بُشراها ، فأنجز يا أمير المؤمنين ما وعدتني به .

قال المهدي : حُبًّا وكرامةً ياسعيد ، سنعطيك بكل درهم من دراهم أمس ديناراً ، و ...

ولم يدعه سعيد يتم كلامه ، فقال : إذا هي عشرة آلاف دينار يا أمير المؤمنين .

فابتسم المهدي وقال : أجل ، عشرة آلاف دينار ، وعشرة نخوت ملأى بالثياب ، وثلاثة جياذ مُحَلَّاة .

فاهتز سعيد طرباً ، وركع أمام المهدي رَكْمَةَ الشُّكُور المحبور^(١) براء لم يُدرْ له بخَلَد^(٢) ، وأخذ المكافأة العظيمة وانصرف ، وهو لا يكاد يُصدِّق أنه في عالم الواقع .

وفيما هو سائر إلى داره مَزَّهوا بما نال لحق به الخادم الذي كان قد كَفَلَ عنه أمس^(٣) ، فلما بَصُر به سعيد قال له : لقد كنتُ عازماً أن ألقاك لأشكر لك ضمانتك ولاأشركك في بعض مانلت .

فقال له الخادم : ما لهذا لَحَقْتُ بك ياشيخ ، وإنما لحقت بك لأسألك : بالله هل كان لرؤياك من أصل ؟ وكيف رآها أمير المؤمنين كما رأيت ؟ استخلفك بكفالتك أن تكشف لي عن وجه الحق ، وأعدك أنما كنتم عليك

(٣) كفل عنه : ضمنه

(٢) الخلد : البال

(١) المحبور : المرور

قال سميد : أما وقد جَرَّبتُ مروءتك في أخرج وقت ، فلن أَضِنَّ عليك بحقيقة الأمر . لقد افتملت تلك الرؤيا وأنا أعرف أن المهدي فرحان بالخلافة ، وحريص على طول عهدها ، فزعمت له ما زعمت ، وكررت على سمعه مرات ، وجعلته يثق فيما قلت ، فَسُفِّلَتْ به نفسه ، وامتلأ به خياله ، فلما نام خَيَّلَ إليه ما كان يفكر فيه وهو في يقظته ، فرأى ما أوهمته أنه سيراه .

فتمجَّب الخادم ، وضرب كفًّا بكف ، وقال للشيخ إنك لشيطان ، لكنك ظريف .

فوضع الشيخ يده على كتف الخادم وقال : يا بني ، نحن في زمن يَرُوج فيه الوَهْمُ وتنبج الحيلة ، ولأن أنال عطاء أمير المؤمنين بكذبة سارة خير من أن أناله بكذبة ضارة ، أو بمدح زائف . ولقد صدقتك ، وجعلت صدق لك مكافأةً على كفالتك ، فاكتم على كما عاهدتني .

مضت على هذا اليوم بضعة أسابيع شغل فيها سميد بإصلاح حاله ، وتجديد داره ، والتوسعة على زوجته وعياله ، وبدا في الجامع بأفخم زى وأجل شارة ، وتناقل الناس خبر ثرائه ، وتسامعوا برؤياه ، وود كل منهم لو كان صاحب هذه الرؤيا ، وعزاها بمضهم إلى طهارة الرجل وصلاحه .

ثم ضَجَّره المهدي يوماً فخطر له أن يطلب سميداً لنادمته ، فوجده نديماً ظريفاً خفيف الروح حلوا الشائل ، فَقَرَّبَهُ واصطفاه . ثم وَلَّاهُ القضاء على عسكره ، وما زال يَشْغُلُ هذه الوظيفة إلى أن مات المهدي ، وهو واثق بصلاحه ، ويرجو أن تصدق رؤياه .

تخلص فكه*

من هذا الرجل الذي يُسرعُ الخطأ في شوارع بغداد ، متجهاً إلى قصر الخلافة ، في أحسن زيه وأجل شارته ؟

إنه أبو دلامة النديم الظريف ، والمحدث الفكه المقدم عند السفاح الذي توفي أمس ، ويأمل أن يقدمه أخوه المنصور الذي تولى الخلافة اليوم . وهو الآن يسرع خطاه إلى قصر الخلافة ، ليعزى المنصور في والده ، وبهنثه بالخلافة سنة ١٣٦ هـ

وصل أبو دلامة إلى القصر فاستأذن على المنصور ، فأذن له ، لأنه يعلم أنه كان أثيراً عند أخيه ، ولأنه يستظرفه ويضحك مما يسمع من أخباره . ودخل أبو دلامة فوجد مجلس الخليفة غاصاً بأمراء بنى العباس وأثراف العرب وكبراء الدولة ، فقصد المنصور وحياء ودعا له ، ثم استأذنه في أن ينشد شعره ، فأذن له . فأخذ ينشد أبياتاً في رثاء المنصور والتفجع على فقده ، في صوت متهدج^(١) مكظوم البركات ، وإلقاء مؤثر حزن الأنات :

أَمْسَيْتَ بِالْأَبَارِ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ	لَمْ تَسْتَطِعْ عَنْ عُقْرِهَا تَحْوِيلًا
وَبَلِيْ عَلَيْكَ وَوَبِلُ أَهْلِ كَلَامِهِ	وَبِلَا وَعَوَّلًا فِي الْحَيَاةِ طَوِيلًا
فَلْتَبْكِينَ لَكَ السَّمَاءُ بِعَبْرَةٍ ^(٢)	وَلْيَبْكِينَ لَكَ الرِّجَالُ عَوِيلًا
مَاتَ النَّدَى إِذْ مُتَّ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ	فَجَعَلَتْهُ لَكَ فِي التَّرَابِ عَدِيلًا

(*) الأصل في الأغاني ١٠ / ٢٤٠ ونهاية الأرب ٤ / ٣٩

(١) صوت متهدج : متقطع في ارتعاش .

(٢) عبرة : دمع

إِنِّي سَأَلْتُ النَّاسَ بِعَدِّكَ كُلَّهُمْ فَوَجَدْتُ أَسْمَحَ مِنْ سَأَلْتُ بِخِيَلَا
أَلِشَقَوْتُ أُخْرْتُ بِعَدِّكَ لِلَّتِي تَدْعُ الْعَزِيزَ مِنَ الرِّجَالِ ذَلِيلَا ؟
فَلَا حُلْفَيْنِ يَمِينِ صِدْقِ بَرَّةٍ بِاللَّهِ مَا أُعْطِيتَ بِعَدِّكَ سُؤْلَا (١)

فبكى الحاضرون ناسين أنهم في مجلس الخليفة الجديد ، وأنه مجلس تغلب فيه التهنئة التعزية ، ويكثر فيه الفرح بمقدار ما يقل فيه الحزن ، ورأى المنصور أن مجلسه قد استحال إلى ماتم ، فغضب غضباً شديداً ، وقال لأبي دلامة : لا تَطْمَنَنَّ لسانك إن سمعتك تُنشد هذه القصيدة .

فقال أبو دلامة : عَفْواً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ أَبَا الْعَبَّاسِ يَرْجِمُهُ اللَّهُ كَانَ لِي مُكْرَمًا ، وَهُوَ الَّذِي جَاءَ بِي مِنَ الْبَادِيَةِ إِلَى الْحَاضِرَةِ ، وَإِنِّي لِأَرْجُو أَلَا أَخَافُ فِي عَهْدِكَ ضَرَرًا وَلَا أَخْشَى .

فقال كبير من الحاضرين : مَا هَذَا يَا أَبَا دَلَامَةَ ؟ لَقَدْ كَانَ أَمْسُ هُوَ الْمَأْتَمُ ، أَمَا الْيَوْمَ فَعَرَسَ الْخِلَافَةَ ، فَكَيْفَ تَرُدُّنَا إِلَى أَمْسٍ ، أَوْ تَرُدُّ أَمْسَ إِلَيْنَا .
وتبعه آخر فقال : أَسَمِعْتَ الْخَلِيفَةَ تُوَاْحِكُ ، وَلَمْ تَسْمَعْهُ أَفْرَاحُكَ ، فَأَيْنَ تَهْنِئَتُكَ يَا أَبَا دَلَامَةَ ؟

فقال أبو دلامة : أَمَا التَّهْنِئَةُ فَإِنْ قَلْبِي بِهَا رَيَّانٌ ، وَقَدْ أَعْدَدْتُهَا ، فَلِمَا كَدْتُ أَسْلُ إِلَيْهَا غَلْبَنِي بِكَائُومٍ وَأَنْسَانِيهَا بِرُهَةٍ ، وَرَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ غَاضِبًا فَطَارَ صَوَابِي ، وَنَسِيتُ مَاقَلْتُ ، وَلَمْ أَجِدْ مَا كُنْتُ سَأَقُولُ ، فَالذَّنْبُ مَقْسُومٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .

فلما سمع المنصور هذا الحوار سرّى عنه ، وقال : قد عفونا عنك يا أبا دلامة ؟
فَسَلُّ حاجتك .

قال أبو دلامة : يا أمير المؤمنين ؛ إن لي حقاً قديماً أفتضيك اليوم إياه ،
ولست اليوم أطلب جديداً .

فقال المنصور : حقاً قديماً ؟ وهل كنتُ الخليفة قبل اليوم ؟ فَتَقْتَضِينِي
حقاً قديماً ؟

قال أبو دلامة : حقى القديم كان عند أخيك أبي العباس .

فقال المنصور : وما حقك هذا ؟

قال أبو دلامة . كان العباس — طيب الله ثراه — قد أمر لي بعشرة آلاف
درهم وخمسين ثوباً ، وكان مريضاً ، فلم أقبضها .

قال المنصور : ومن يَعْلَمُ ذلك ؟

قال أبو دلامة : هؤلاء يعلمون . وأشار إلى جماعة من الحاضرين .

فنظر المنصور إليهم ؛ وقال : من علم ذلك منكم فَلْيَشْهَدْ . فَشَهِدَ بعضهم
بما قال أبو دلامة ، فاغتاز المنصور ، وقال لخازنه في تَجَرُّهْمُ : يا سليمان ادفع إليّ
عشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً .

فاهتز أبو دلامة فَرَحاً ، ودعا للمنصور بدوام العزة وتأييد الملك .

لكن المنصور لم يلبث أن قال لأبي دلامة : خذ الدراهم والثياب ، ومُحْدِ
إلينا غداً ، لأننا سنرسلك في جيشنا إلى الشام لقتال الطاغية عبد الله بن علي ،
وقد عقدنا إمارة الجيش لقائدنا أبي مُسْلَمٍ ، ولن يعود إلينا إلا مظفرّاً ، ومعه رأس
عبد الله مهما يكلفه ذلك من جهد ومخاطرة وشدة بلاء .

فوثب أبو دلامة إلى قدمي المنصور قائلاً : يا أمير المؤمنين ، أعيذك بالله أن أخرج في جيشك هذا ، أعيذك وقائدك أن أكون معه .

قال المنصور : ولم ؟ فقال أبو دلامة : إني والله مشثوم .

قال المنصور : وإن يُمنّني ليغلب شؤمك .

قال أبو دلامة وهو يرتعد : يا أمير المؤمنين ، إن شؤمي كقطرة السم الزُّعَاف تضاف إلى السكّاس فتجعلها كلها مُمَيَّا .

قال المنصور : سنجرب ذلك . فقال أبو دلامة في ضعف : فوالله ما أحب أن يجرب ذلك أمير المؤمنين على جيشه العظيم ، وقائده المظفر ، فإني لأدري والله أيهما يغلب ، يمن أمير المؤمنين أم شؤمي ؟ إلا أنني بنفسى أوثق ، وبشؤمي أعرف ، وبنحسى أطول تجربة .

قال المنصور : دعنا من شؤمك ، فما لك من الخروج للحرب مَفَرَّة .

فتخاذل أبو دلامة وانكشف ، وانضم بمضه إلى بمض ، وقال بصوت مخنوق : الآن والله أصدُّك يا أمير المؤمنين .

قال المنصور : قل . فقال : لقد والله شَهِدْتُ تسعة عشر جيشاً ، كلها هُزِمَتْ ، وكنت السبب في هزيمتها . فإن شئتَ الآن — على بصيرة — أن يكون جيشك هذا تمام العشرين فافعل ، فإني لست أنحوف على حياتي ، وإنما أنحوف على جيشك وعلى ممالكك العظيم .

فضحك المنصور ، وضحك من حضروا ، وقال لأبي دلامة : عفواً عنك ، وأقلناك . فَرُدَّت روح الرجل إليه ، وقال : أعز الله ملكك ، إني لأذكر أنني نلت عَفْوَين في مجلس واحد ، ونِلْتُ عطاء كان قد سقط حق

فيه بموت معطيه ، وإني لفي طاعة الخليفة والوفاء له ما حيت .
فقال المنصور . على ألا تشهد حربا ؟

قال أبو دلامة : لو كان لي روحان ما خفت الحروب ، لكن لي روحاً واحدة ،
ولأن أحيا ويقول الناس : جبانٌ أخزاه الله ، خيرٌ عندي من أن أقتل
ويقولوا : بطلٌ يرحمه الله .

فأثتف الخليفة ومن معه ضحكاتهم ، وخرج أبو دلامة يتبعه بما نال
وعا قال .

جبان ظريف

شرب أبو دلامة ليلةً وأكثر من الشراب ، فغاب عنه رشده ، وجعل يهذى ، ثم وثب إلى الطريق فثنى فيه يترنح ويتغنى ، فأمسكه الشرطة ، فشتهم شتماً قبيحاً ، فأنذروه أن يبلغوا أمره إلى الخليفة المنصور — وهم يعلمون أنه أثيرٌ عنده — فسب المنصور واستهان به ، فهاهم ما قاله ، وذهبوا به إلى المنصور .

لم يكن أبو دلامة قد أفاق حينما مثل بين يدي الخليفة ، ولم يكن سكره شديداً كما كان قبل أن يقدم به صاحب الشرطة على الخليفة ، وإنما كان في حال لاهي بالقيظة الكاملة ولا هي بالغيوبة الكاملة . على أنه كان يجاهد ليبعد أمام الخليفة عاقلاً يقطاً ، لكن ذلك لم يتفمه ، لأن الخليفة شاهد في عينيه أمارات السكر وآثاره ، وعلم أنه كان بُمرِّدٌ في الطريق ، وأنه سب الشرطة ، وعدا على رئيسهم ، وإن كان لم يعلم بأنه عدا على مقام المنصور ، فإن صاحب الشرطة لم يجد من الكياسة أن ينقل إلى المنصور شتمهم سكران ، وهو يعلم أنه من ندمائه .

لم يكن مفرّاً لأبي دلامة من العقاب الرادع ، ولم يكن أودع له من إشراكه في الحرب ، لأن المنصور يعرف هَلَمَهُ^(١) من وقع الأسنة ، واشتجار^(٢) السيوف والرماح . فأقسم المنصور ليُخْرِجَنَّهُ في جيشه الذي أعده لقتال الخوارج . فلما سمع أبو دلامة فسَمَ المنصور أفاق إفاقة لا يشوبها سُكْرٌ .

(٢) اشتجار : اشتباك

(١) الهام : الفرع

وجثا بين يدي المنصور راجياً أن يُعْفِيه ، فنهزه المنصور نَهْرَةً أَيَّاسْتَهُ من السلامة .

وبعد ثلاثة أيام تحرك الجيش لقتال الخوارج ، وفيه أبو دلامة يَوَدُّ لو اتخذ نَفَقاً في الأرض أو سُلماً في السماء ، وليس لمودمي الجيش حديث إلا أبا دلامة الذاهب إلى أحرَّ ميادين الحرب وأعظمها حاجةً إلى البسالة ، فإن الخوارج يتهافون على القتال في بأس الحديد وشجاعة الأسود ، ولن يطبق أبو دلامة أن يَرى حربهم وإن من بعيد .

وكان قائد الجيش رَوْح بن حاتم الملهبي ، وكان يعرف جين أبي دلامة ، لكنه كَتَمَ ذلك في نفسه إلى أن التقى الجيشان . وكأنما أراد أبو دلامة أن يَخْدَعَ القائد ، وَيَسْبِقَهُ إلى طلب يعلم أنه لا يتحقق ، فقال له : أَمَّا وَاللَّهِ لو أن فرسك تحمى ، وسلاحك ممي ، لَأَثَرْتُ في عدوك اليوم أَرَأَ تَرْضِيهِ . لكن روحاً خَيْبَ ظنه ، فإنه ضحك وقال له : والله لأدفعن إليك فرسى وسلاحى ، ولأطالبنك بالوفاء بما شَرَطْتَ على نفسك . ونزل عن فرسه ، ونزع سلاحه ، وسلبهما لأبي دلامة .

أخذ أبو دلامة يلوم نفسه أشد اللوم وأعنفه ، وأيقن أن مَنِيَّتَهُ قد دَنَتْ ، لأنه كان على أمل النجاة ، فصار الآن على أشد اليأس . لقد كان جندياً من المحاربين يحتمل أن يظل بعيداً أو شبه بعيد عن الهلاك الأكيد ، أما الآن فإنه فارس يمتطي فرس القائد ، ويحمل سلاحه ، وقد شَرَطَ على نفسه — كاذباً — أن يُوَثِّرَ في الخوارج آثاراً ، والقائد الآن يدفعه إلى الحوْمة^(١) وبطالبه بتحقيق ما وعد .

(١) الحوْمة . ميدان الحرب

فهل تُنصِّيه الحيلة التي تُنصِّجيه من هذا المأزق ؟ لقد استعاذ بالقائد أن يُنصِّفه فلم يُجِبْه ، فعرض عليه أن يستمع أبياتاً قالها ، فأذن له ، فأنشده :
إني استعجرتك أن أقدم في الوغى ^(١) لتطاعن وتنازل وضراب
فهب السيوف رأيتها مشهورة فتركتها ومضيت في الهرب
ماذا تقول لما يجيء وما يرى من واردات الموت في الشباب ^(٢) ؟
فقال القائد : دغ عنك هذا ، وتأهب لتحقيق ما شرطت على نفسك ،
واذكر أن حصاني تحمك ، وسلاحى معك .

فأخذ أبو دلامة يقول في نفسه : ليتني لم أطلق لساني بما فُهِتُ به كاذباً
أو مازحاً ، لا كان فرس القائد ، ولا سلاحه ، ولا كانت الليلة التي احتسيت فيها
الخمر حتى كُئِمتُ وهكذبتُ

وآتشد برز رجل من الخوارج يتحدَّى من يبارزه من جيش روج ابن
حاتم ، فقال لأبي دلامة : اخرج إليه يا أبا دلامة .

فكأنما حرَّت عليه السماء أو تحطَّفته الفيلان ، فقال : أنشدك الله
فيها الأمير في دمي . ولم يكذب ، لأن أسنانه اصطك بعضها بيمض كالحموم
الذي يرتعش . فلم يعبأ روح بما رأى وسمع ، وقال والله لتخرجن . فوجد
أبو دلامة أنه ما من الخروج بد ، فواتته بديته بحيلة من حيله التي برع فيها ،
وفال للقائد : إن يومى هذا آخر يوم من الدنيا ، وأول يوم من الآخرة ،
وأنا والله جائع ، فأمُر لي بطعام آكله لأشبع ، ثم أخرج للمبارزة ، وقد
ودعت الدنيا شبعان .

(١) الوغى : الحرب . (٢) الشباب : النبل .

فَأَمَرَ الْقَائِدَ لَهُ بِدَاجَةِ وَرَغِيفَيْنِ ، فَأَخَذَهَا ، وَبَرَزَ بِهَا عَنِ الصَّفِّ . فَلَمَّا رَأَى الْخَارِجِيُّ أَقْبَلَ نَحْوَهُ ، وَعَلَيْهِ قُرْؤٌ قَدْ أَصَابَهُ الْمَطَرُ فَأَبْتَلَّ ، وَضَرْبَتُهُ الشَّمْسُ فَاثْكَمَتْ وَتَقَبَّضَ ، فَصَارَ مِثْلَ الشَّنِّ ، وَعَيْنَاهُ تَتَقَدَّانِ شَرًّا ، وَسَيْفُهُ يَمِينُهُ مُرْهَفٌ لَا مَعَ ، وَأَسْرَعَ صَوْبَ أَبِي دَلَامَةَ مُتَاهِبًا لِلْمُبَارَزَةِ ، وَاتِّقَاً مِنَ الظَّفَرِ . فَرَفَعَ إِلَيْهِ أَبُو دَلَامَةَ يَدَهُ مُشِيرًا بِالْأُصْبُعِ ، وَابْتَسَمَ لَهُ ابْتِسَامَةَ الْمُسْتَرْضَى الَّذِي لَا يَعْتَزِمُ شَرًّا ، وَقَالَ لَهُ : عَلَى رِسْلِكَ يَا أَخِي . فَتَوَقَّفَ الْخَارِجِيُّ فِي دَهْشِهِ وَأُهْبَةِ . فَقَالَ لَهُ أَبُو دَلَامَةَ : أَتَقْتُلُ مَنْ لَا يِقَاتِلُكَ ، وَلَا يَنْوِي بِكَ شَرًّا ؟

قَالَ الْخَارِجِيُّ : لَا . قَالَ أَبُو دَلَامَةَ : أَتَقْتُلُ رَجُلًا عَلَى مَذْهَبِكَ ؟
قَالَ الْخَارِجِيُّ : لَا . فَسُرِّيَ عَنْ أَبِي دَلَامَةَ وَقَالَ : أَنْسَجَلُ قَتْلِي قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي إِلَى مَذْهَبِكَ ؟

قَالَ الْخَارِجِيُّ : لَا . فَمَا لَكَ بَرَزْتَ لِي مِنْ دُونِ النَّاسِ ؟ أَذْهَبَ عَنِّي لَعْنُكَ اللَّهُ .
قَالَ أَبُو دَلَامَةَ : وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ حَتَّى تَسْمَعَ مِنِّي .

قَالَ الْخَارِجِيُّ : قُلْ فَقَالَ لَهُ : هَلْ كَانَتْ بَيْنَنَا عِدَاوَةٌ قَطُّ ؟ أَوْ عَرَفْتَ مِنْ حَالِي مَا يُحْفَظُكَ عَلَيَّ ؟ أَوْ تَعْلَمُ بَيْنَ أَهْلِي وَأَهْلِكَ وَتَرَا ؟
قَالَ الْخَارِجِيُّ : لَا وَاللَّهِ .

فَازْدَادَ أَبُو دَلَامَةَ اطمِئْنَانًا عَلَى نَفْسِهِ . وَقَالَ : وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أَحْفَظُ لَكَ إِلَّا جَمِيلَ الرَّأْيِ ، وَلَا أُرِيدُ بِكَ إِلَّا الْخَيْرَ ، وَإِنِّي لِأَهْوَاكَ ، وَأَدِينُ بِمَذْهَبِكَ ، وَأُرِيدُ السُّوءَ لِمَنْ أَرَادَ لَكَ السُّوءَ ، وَمَا بَرَزْتُ لَكَ إِلَّا مُكْرَمًا .

قَالَ الْخَارِجِيُّ : يَارَجُلُ ، جَرَاكَ اللَّهُ ، فَاثْكَمَتْ . فَأَخْبَرَهُ أَبُو دَلَامَةَ بِأَنْ مَعَهُ زَادٌ يَحِبُّ أَنْ يَأْكُلَهُ مَعًا ، لِتَتَأَكَّدَ الْمَوَدَّةُ بَيْنَهُمَا ، وَلِيَرَى الْعَسْكَرَ ذَلِكَ ، فَيَعْلَمُوا أَنَّ السَّلَامَ أَوَّلَى مِنَ الْخِصَامِ . فَضَمَّ الْخَارِجِيُّ ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ

أبو دلامة حتى تلامس عنقا فرسيهما ، وجما أرجلهما على مَعْرِفَتَيْهِمَا ،
والناس يشهدون ذلك ، ورونهما يأكلان معاً فيفلبهم الضحك والدهشة .
فلما أكلا ودَّع كل منهما صاحبه كما يودَّع الصديق صديقه . ولم ينس
أبو دلامة أن يذكر لصاحبه أن قائده أحق ، فعليه ألا يطلب مبارزة اليوم ،
لأنه إن طلبها فربما نَدَبَه القائد لِيَبْرُزَ ثانية ، فيتعب كل منهما صاحبه
بمدآن تصادقا . فوعده الخارجي ألا يطلب من يبارزه اليوم ، ثم انصرف كل
منهما إلى عسكره .

عاد أبو دلامة مزهواً ، فرحاً بسلامته ، وقال لرؤس بن حاتم . أما أنا
فقد كفيتك قرني^(١) ، فاندب غيري ليكفيك قرنه كما كفيتك . فسكت روح
مَفيظاً ، ولم يُجِرْ جواباً^(٢) . وما لبث خارجي آخر أن طلب المبارزة ، فقال روح
لأبي دلامة : اخرج إليه فبارزه . فدُعي أبو دلامة دُعَا اليأس من النجاة
في هذه المرة ، لكن بديهته السمفة وافته باعتذار ظاهره حق وباطنه باطل ،
فقال للقائد : أريد أن يظنوا أن عسكرك ليس فيهم غير بطل واحد ؟ اختر غيري
ليخرج ، فيعلموا أن بعسكرك ثروة من الأبطال .

فعلم القائد أن مقاله هذا خُدعةٌ ، وقال له : زيد أن نطمعهم أول الأمر ،
فإذا ما غرهم طمعهم مضينا إليهم فسحقناهم . اخرج إلى المبارزة ، فلا سبيل إلى
التخلي ، فإنك ميمون الطالع .

فلم يجد أبو دلامة مندوحةً عن الاعتذار بقوله :

إني أعوذ برؤس أن يُقَدِّمَنِي إلى البراز فَتَخْزِي بني أسد

إن البراز إلى الأقران أغلّمهُ مما يُفَرِّق بين الروح والجسد
قد حالفَتك المنايا إذ صمَدَت^(١) لها وأصبَحَتُ لجميع الخلق بالرَّصَد^(٢)
إن المهلَّب حُبُّ الموت أوزَرَكم وما وِرِثْتُ اختيار الموت عن أحد
لو أن لي مُنْجَةً أخرى لجُدْتُ بها لكنها خُلِقَتْ فرداً فلم أُجد
فضحك رَوَّح بن حاتم المهلَّبى ، وأعفاه .

(١) صمَدت : قصدت وثبت

(٢) الرصد : المرصاد .

أعجب خصومة أمام القضاء*

عَرَفَ الناس في بغداد رجلاً كثير المال ، شديد البخل ، رَثَّ الزَّي ، اسمه أبو القاسم الطَّنَبُورِيّ .

وطالما تَنَدَّرُوا به ، وَسَخِرُوا من بخله ، وَعَجِبُوا من حرصه على المال وحرمانه نفسه ، وهو في غِنَى عن ذلك كله ، لأنه أعزب ، ليست له زوجة أو أولاد يُعَيِّنُ نفسه بمستقبلهم ، ويخاف من سطوة الفقر الموهوم عنهم .

وكان الرجل قاسياً على نفسه في تكليفها ما لا نطبق من شَطَف العيش ، كما كان قاسياً عليها في احتمال سخريه الناس ، والتناقل عما يَرَى ، والتسأم عما يَسْمَعُ .

ولم يعرف الناس أبا القسم ضَجيراً منهم ، ولا يَرَمًا بشأن من شئونه ، إلى أن أضجره حذاؤه . فتناقلوا قصته ، ورووها جيلاً عن جيل .

لقد اشترى أبو القاسم حذاءً شبه جديد من بائع كجوال بثمان بخس ، لكنه كان يلبسه مَزْهُواً به ، ويمشي به في شوارع بغداد ، وقد كشف عنه جلبابه ، كأنما يريد أن يَرَى الناس جميعاً أنه اشترى حذاءً .

وأدرك الناس أن أبا القسم قد اشترى حذاءً شبه جديد ، فلم يستغربوا صنعه ، لأنهم قد عرفوه من قبل لا يكرم نفسه بجديد يلبسه .

وكان حريصاً على حذائه هذا . يمشي به على خفة ومهل إذا ما مَشَى ،

وبضعه بيمينه في حذر إذا ما جلس ، ويحفظه أمامه في المسجد إذا ما صلى .

وما زال يلبس حذاءه سبع سنوات لم يغيره فيها ، وكلما نَقَطَّعَ منه موضع رقبته ، حتى صار ضخمًا سميكًا ثقيلًا غاية الثقل ، وحتى صار يمشي به في عناء كأنه يحمل في قدميه حجرا ، فصار الناس يَرْتُون لأبي القاسم تارة ، ويرثون لحذاءه تارة ، ويضربون به المثل في طول الأجل ، وقوة الجَلَد ، والقدرة على الاحتمال .

وذات يوم دخل أبو القاسم الحمام العام ليستحم ، فلقى هناك صديقا من أصدقائه ، وأخذا يتحدثان ، فقال له صديقه : يا أبا القاسم ، إنى لأحب أن تغير حذاءك هذا ، فإنه أشنع حذاء رآه الناس ، وأنت بحمد الله ذو مال وفقر . فوافقه أبو القاسم على ما رأى ، ووعدته أن يشتري حذاء جديدا من غد .

ولما خرج من الحمام وليس ثيابه وجد بجانب حذاءه حذاء جديدا ، فظن أن صديقه قد اشتراه له ، وأعدّه هكذا بجوار حذاءه ليأخذه ويمضى به ، وحسب أن حديث صاحبه معه كان تمهيدا لذلك ، فلبس الحذاء الجديد ومضى .

لكن ذلك الحذاء الجديد كان حذاء مستحم آخر هو القاضي ، فقد جاء إلى الحمام ، وترك حذاءه في ذلك المكان ، وهو آمن عليه . فلما خرج فُتِسَ عن حذاءه فلم يجد ، فذعر صاحب الحمام ، وقام هو وأعوانه بالتفتيش عن حذاء القاضي فلم يَشُؤْروا عليه . فقال لهم القاضي : ألم يترك الذي أخذه أثرا يدل عليه ؟ فنظروا فوجدوا حذاء معروفا لهم هو حذاء أبي القاسم ، وفتشوا في الخزانة فوجدوا أبا القاسم ، فأيقنوا أنه هو الذي ترك حذاءه ، وأخذ حذاء القاضي .

اغتاظ القاضى من جرأة الرجل ، وكان صاحب الحمام أشد منه غيظا ، فأرسل القاضى بمض الشرطة فكَبَسُوا بيت أبى القاسم ، ووجدوا حذاء القاضى عنده ، فمضوا به وبالحذاء إلى القاضى . فاعتذر للقاضى بأنه لم يَسْرِقْ الحذاء ، ودل على حُسْن نيته بأنه لو كان قاصدا أن يسرق ما ترك حذاءه هو دلالة عليه ، فإن حذاءه معروف للناس مثله . لكن القاضى لم يستمع لقوله ، فأمر بحبسهِ وَضَرَ به وتغريمه حتى لا يعود لثملها بعد . فسَخِطَ أبو القاسم على حذاءه ، ولعله سَخِطَ بمض السخِط على نفسه ، لأنه لم يبدله من قبل ، وعزم على أن يتخلص من الحذاء إذا ما خرج من الحبس .

فلما خرج مضى بحذاءه غضبان إلى نهر دجلة وطوَّح بالنمل الأيمن ، ثم رمى بالنمل الأيسر وهو حائق ، فناصر النملان فى الماء كما يفوصُ الحجر الثقيل ، وانداحت لكل منهما دائرة فى الماء ، ثم التأم الماء كأن لم يتلغ أشنع نملين رُمِيا فيه منذ جرى .

عاد أبو القاسم إلى داره حافى القدمين ، مسرورا ، لأنه تخلص من حذاءه المشؤم ، وأخذ يفكر فى شراء حذاء جديد أو شبه جديد .

ثم اتفق أن دخل سوقَ الزُّجاجِ ببغداد ، فقابله سمسار ، وقال له فى لهفة : يا أبا القاسم ، عندى لك الآن خبر سارٌّ مُرَبِّح . فقال أبو القاسم وهو يبتسم : بَشِّرْكَ الله بالخير يا بنى ، ماذا عندك ؟ فقال السمسار : قد جاء اليوم تاجر من حَلَب ، ومعه صندوق كبير مملوء بزجاجات مُذَهَّبة ، ولم يشتريها منه أحد ، وهو يريد أن يسافر مريما ، فتعال لتشتريها منه ، وعلى أن أبيعها لك بعد أسبوع واحد بضِمْف ثمنها ، وأرضى بما تمطينى .

فوجد أبو القاسم فى هذه الصَّفقة ربحا عاجلا ، فمضى مع السمسار ، واشترى

الزجاجات بستين ديناراً ، وحملها إلى منزله ، وهو فرح بها ، يُؤمّل من وراها ربها عظيماً .

وإذ كان يمشى بسوق المطارين في اليوم الثاني أدركه سمسار آخر فقال له :
أَبَشِّرْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، فَقَدْ قَدِمَ إِلَيْنَا الْيَوْمَ مِنْ دِمَشْقِ تاجر ، معه ماء وَرْدٍ ، وهو مُتَمَجِّلٌ فِي سَفَرِهِ ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَشْتَرِيَ مِامَهُ رَخِيصاً ، وَهَلَى أَنْ أَيْعَمَ لَكَ فِي أَقْرَبِ زَمَنٍ ، فَتَرِيحَ رَضْعَفَ مَا دَفَعْتَ .

فשמّر أبو القاسم بأن الرّيح يحالفه ، فهو سير يبح في زجاجات الأمس مثل ثمنها ، وسيبيع ماء الورد بضعف ثمنه ، فأسرع إلى التاجر واشترى مامه بستين ديناراً ، وحمله إلى منزله .

ثم فكر فوجد خيرا له أن يعلّأ الزجاجات المذهبة بماء الورد ، ويعرضها للبيع ، فإنها أعظم إغراء ، وأعظم ربحا . فلأها في حذر ولم يُضِغْ من ماء الورد نقطة ، ورصّها في صدر بيته . وجعل ينظر إليها نظرات الإعجاب بمنظرها والشوق إلى ربحها المأمول ، وهو يُحَدِّثُ نفسه بالألا يعرضها للبيع إلا بعد شهر ، إذ يكون شهر رمضان قد أقبل ، وتكون حاجة الناس إلى ماء الورد أعظم .

ولم يمض على ذلك يوم واحد حتى كان صياد بصيد بشبكته في نهر دجلة ، فبيشدها خالية مرات ومحملة ببعض السمك مرة ، وفي إحدى المرات شدها فأحسّ أنها ثقيلة ، ثقيلة جدا . ففرح فرحا عظيما ، واثقا أنها قد صادت سمكا كثيرا وكثيرا . فلما أخرجها من الماء كانت دهشته عظيمة ، وخيبته أليمة ، لأنه لم يجد في شبكته الثقيلة غير حذاء أبي القاسم .

فأخرجه من الشبكة وهو حائق ، وهمّ بأن يطوح به في النهر ، لكنه خشي أن يقع في شبكته أو في شبكة صياد آخر ، فيخذه مرة ثانية ، وفَضَّلَ أن يحمله إلى

أبو القاسم ، فلمله كان يتوضأ في النهر فسقط منه حذاؤه ، ولم يستطع أن يخرج ، وربما يعطى الصياد درهما جزاء له .

فعله وذهب به إلى بيته ليقدمه له ، لكنه لم يجده ، فنظر فرأى شباكا في صدر البيت ، فرمى النملين منه تباعاً ، فسقطا على الرف ، فوقع بما يحمل من زجاجات الورد ، فانكسرت الزجاجات ، واندلق ماء الورد .

جاء أبو القاسم فرأى ماء الورد يجري في صحن داره ، ورأى الزجاجات كلها محطاما ، ونظر فرأى حذاؤه فأخذ يصيح ويبكي ، ويندب ماله الذي ضاع ، ويسخط على حذائه المشثوم .

وقام من فوره ليتخلص من حذائه بطريقة أخرى غير الإغراق في النهر ، فجعل يحفر حفرة بجانب الجدار ليدفنه فيها فلا يثر به أحد ولا يعود إليه ، وكان الناس قد ذهبوا إلى مضاجعهم ليناموا ليلا ، فلما سمع الجيران صوت الحفر حسبوا أن لصا ينقب عليهم جدارهم ليسرقهم ، فصاحوا ، فجاء الشرطة على صياحهم ، وقبضوا على أبي القاسم ، ومضوا به إلى الحاكم ، فحاكمه على أنه لص كان ينقب جدار جاره ليسرقه ، وجعل أبو القاسم يبكي للحاكم ماذا كان يريد أن يفعل ، لكنه لم يصدق قوله ، فحبسه حتى يتثبت من أمره ، ثم غرمه بمض المال وأطلقه .

فخرج من الحبس حائقا أشد الحنق على حذائه ، ولم ينس أنه كان السبب في ضربه وحبسه وتغريمه لأول مرة ، وأنه هو الذي ضيع ماله وربحه المأمول ثانياً مرة ، وأنه في هذه المرة الثالثة جبر عليه تهمة السرقة والنقب ، وسبب له الحبس والغرامة .

ففكر في أن يتخلص من الحذاء بطريقة لا هي الإغراق في النهر ولا هي الدفن في باطن الأرض ، فإن هذا الحذاء المشثوم ليس أهلا للماء أو للتراب ،

فعله إلى مرحاض الخان^(١) وأسقطه فيه قائلاً : اذهب إلى حيث يليق بك أيها الحذاء المشثوم ، اذهب فلن تعود بعد اليوم ، لقد رميتك في النهر فعدت ، وأردت أن أدفئك في الأرض فخرجت ، فليس لك إلا ذلك العَوْر الذي لا مُخْرَجَ منه . وعاد أبو القاسم إلى داره مسروراً ، وقد ألقى عن كاهله أثقل حِمْل .

لكن قَصَبَةَ المرحاض انسَدَّتْ بمداييم ، ففاض ، وانبعثت الرائحة الكريهة ، ثم زادت حتى ضَجِرَ الناس وبجثوا عن السبب ، فوجدوا حذاء أبي القاسم وقد ازداد تورُّماً وانتفاخاً ، فسخطوا على الرجل ، وتوعدوه بالشر في غيابه ، ومضى بعضهم إلى الوالى فشكا إليه مما فعل أبو القاسم ، وبالنوا في شكواهم ، فأكدَّوا للوالى أن أبا القاسم رمى حذاءه عَنُوةً لِيُضْجِرَ التجار من الإقامة بالخان ، فَيُضْطَرُّوا إلى بيع متاجرهم بأبخس الأثمان ، وهو مترصد للشراء من التاجر المتمجِّل . فأحضره الوالى وأمر بحبسه وتغريمه ، وبإصلاح مرحاض الخان على نفقته . وبعد مدة خرج أبو القاسم ومعه حذاؤه وذهب إلى داره وهو ينفطر^(٢) من الفيظ ، ثم قال في نفسه : وما ذنب هذا الحذاء ؟

إننى أنا البَطِرُ^(٣) الساعى إلى فراقه ، وكلما فرقت بينى وبينه عاد إلىّ ، وجرّ كارثة ، أ يكون حذائى أعظم وفاء لى من حرصى عليه ؟ والله لا فارقت أبدا . ثم إنه غسله ودهنه بالشحم ، ووضعه على سطح بيته ليَجف ، معترفاً أن يلبسه مها يَقْتُلُ الناس ؟ فشتم كلب رائحة الدهن ، فوثب إليه ، وظلّه رِمَّةً ، فحمّله وقفز به إلى سطح آخر ، وإذا كان يقفز سقط الحذاء على رأس رجل ، فجرّحه جرحاً بليفاً ، فصاح الرجل واجتمع الناس ، وعرفوا أن الحذاء سقط عليه من أعلى ، ونظروا إلى الحذاء فإذا هو حذاء أبى القاسم .

(١) الخان : الفندق الكبير العام .

(٢) ينفطر : ينشق

(٣) البطر : الكارة للشيء من غير داع .

شكا الجريح إلى الحاكم ، وحضر أبو القاسم فاعتذر بأنه لم يُسَقَطْ حذاه ، ولم يَرَ الذى أسقطه ، وليس مسئولاً عنه . فرفض الحاكم دفاعه ، وألزمه بالإتيان على الجريح حتى يلتئم جرحه ، وأمره بدفع غرامة .

كان المبلغ الذى دفعه أبو القاسم فى هذه المرة آخر ما يمتلك من المال ، فدفعه وهو يبكى أحرَّ البكاء ، ويندب ثروته التى جمعها من عرقه وجوعه ودموعه .

لقد كان حذاؤه نحساً ، وكانت خاتمته معه بُؤْساً ، ولقد كان التخلص منه وبالأمر نكالا ، فلا سبيل إلا أن يتخلص منه على مشهود من الحكومة ومسمع .
ها هو ذا يعضى بحذائه إلى القاضى ، ويخبره فى أدب واستحرام أنه قد ضاق بحذائه ذرعاً ، وأنه قد بَلَأَ من جرأته التعرُّيم والضرب والحبس مرات ، على أنه برىء مما جَنَى حذاؤه المشئوم . فيسأله القاضى ساخراً : وماذا تريد يا أبا القاسم ؟ فيقول : أريد من مولاي القاضى أن يكتب ببنى وبين هذا الحذاء المشئوم براءة شرعية على أنه ليس منى ولست منه ، وأنتى برىء منه ومن جرأته ، وأنتى قد باينت مبانة لارجمة فيها ولا أسف ، وإذا ما اقترفُ جرماً فأنتى برىء منه ولا أسأل عنه ولا أعاقب عليه .

عندئذ يستغرق القاضى فى الضحك ويقول لأبى القاسم : هذه أعجب خصومة عَرِضَتْ على القضاء يا أبا القاسم ، وهذه البراءة التى تريد أعجب براءة طَلِبَتْ من قاضٍ . اذهب بحذائك المشئوم فادْفَنْه فى الخلاء بعيداً عن الناس وخذ هذه الدنانير لتمينك على الحياة .

فينصرف أبو القاسم مسروراً بمطية القاضى ، ويذهب إلى الخلاء البعيد ، فيحفر حفرة عميقة ، ويرى فى جوفها بحذائه ، ثم يهيل عليه التراب فى سرعة وقوة

وَحَنَقَ ، كَأَنَّمَا يَخْشَى أَن يَبْرُزَ لَهُ مِنْ خِلَالِ التُّرَابِ .

نَمَّ يَنْصَبُ عَلَى الْحَفِيرَةِ خَشْبَةً مُسْتَطِيلَةً مَكْتُوبًا عَلَيْهَا : أَبُو الْقَاسِمِ بَرِيءٌ
مِنْ حَدَائِهِ الْمَشْتُومِ .

وَكَالَ النَّاسُ يَمْرُونَ بِالْحَفِيرَةِ وَيَقْرءُونَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ ، فَيَفْرَقُونَ فِي الضَّحْكَ ،
وَيَتَحَدَّثُونَ بِقِصَّةِ أَبِي الْقَاسِمِ .

المصادر والمراجع

(للجزأين الأول والثانى)

مرتبة ترتيباً هجائياً

- ١ — أبو نواس الجديد (حسين شفيق المصرى) جمعه أبو بئينة .
- ٢ — أخبار أنى نواس . أبو هَفَّان عبد الله بن أحمد المِهْزى ، تحقيق الأستاذ عبد الستار فراج .
- ٣ — أخبار جحا . الأستاذ عبد الستار فراج .
- ٤ — أخبار الحق والمغفلين . ابن الجوزى .
- ٥ — أخبار الظرفاء والمتاجنين . ابن الجوزى .
- ٦ — الأذكىاء . ابن الجوزى .
- ٧ — أساس البلاغة . الزمخشري .
- ٨ — الإصابة فى معرفة الصحابة . ابن حجر .
- ٩ — الأغانى . أبو الفرج الأصفهاني .
- ١٠ — الإفصاح فى فقه اللغة . الأستاذان عبد المتعال الصميدى وحسين يوسف موسى .
- ١١ — ألف نادرة . جمعها الأستاذ محمد مسعود .
- ١٢ — الإمتاع والمؤانسة . أبو حيان التوحيدى . تحقيق الأستاذين أمين وأحمد الزين .

- ١٣ — البخلاء . الجاحظ . تحقيق الأستاذين أحمد المومرى وعلى الجارم
- ١٤ — البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون
- ١٥ — تاريخ الأدب العربى بمصر والشام . الأستاذ السباعى بيومى .
- ١٦ — تاريخ الجبرتي (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) عبد الرحمن الجبرتي
- ١٧ — التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم . الخطيب البغدادى .
- ١٨ — الجاحظ معلم العقل والأدب . الأستاذ شفيق جبرى .
- ١٩ — جمهرة الأمثال . أبو هلال المسكرى .
- ٢٠ — حسن المحاضرة . السيوطى .
- ٢١ — الحضارة المصرية القديمة . جستاف لوبون . ترجمة الأستاذ محمد صادق رستم
- ٢٢ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى : الدكتور أحمد محمد الحوفى .
- ٢٣ — خريدة القصر وجريدة أهل العصر . مخطوط بدار الكتب
٤٢٥٥ أدب .
- ٢٤ — ديانة قدماء المصريين . الأستاذ سليم حسن .
- ٢٥ — ديوان أبى الفضل بهاء الدين زهير .
- ٢٦ — ديوان ابن الرومى . تحقيق الأستاذ كامل كيلانى .
- ٢٧ — ديوان ابن قلاقس .
- ٢٨ — ديوان ابن مطروح .
- ٢٩ — ديوان (أغاريد السحر) الأستاذ على الجندى .
- ٣٠ — ديوان (ألحان الأصيل) الأستاذ على الجندى .

- ٣١ — ديوان حافظ إبراهيم . تحقيق الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبيارى .
- ٣٢ — ديوان الحماسة لأبي تمام . شرح التبريزى .
- ٣٣ — ديوان الرافعى . الأستاذ مصطفى صادق الرافعى .
- ٢٤ — ديوان الساعاتى . محمود صفوت الساعاتى .
- ٣٥ — ديوان الشاب الظريف . شمس الدين محمد التلمسانى .
- ٣٦ — ديوان (الشوقيات) أحمد شوقى .
- ٣٧ -- ديوان (صرخة فى واد) الأستاذ محمود غنيم .
- ٣٨ — ذوو الفكاهة فى التاريخ . الأستاذ صادق الملائكة .
- ٣٩ — ذيل زهر الآداب . المصرى .
- ٤٠ — رسالة الترييع والتدوير . الجاحظ .
- ٤١ — رسالة الغفران . المعرى . تحقيق الدكتور بنت الشاطىء .
- ٤٢ — زهر الآداب . المصرى .
- ٤٣ — الساق على الساق . أحمد فارس الشدياق .
- ٤٤ — الصناعتين . أبو هلال العسكري .
- ٤٥ — الضحك . برجسون . ترجمة الأستاذين سامى الدروبي وعبد الله عبد الدايم .
- ٤٦ — العقد الفريد . ابن عبد ربه .
- ٤٧ — على هامش التاريخ المصرى القديم . الأستاذ عبد القادر حمزة .

- ٤٨ — العمدة . ابن رشيقي القيرواني .
٤٩ — عيون الأخبار . ابن قتيبة .
٥٠ — عيون الأنباء في طبقات الأطباء . ابن أبي أصيبعة .
٥١ — الفصوص الياقوتية في محاسن شعراء المائة السابعة . ابن سعيد الأندلسي
٥٢ — فلاسفة وصعاليك (مخطوط) الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف .
٥٣ — فن الشعر : أرسطو . ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي .
٥٤ — فوات الوفيات . ابن شاكر .
٥٥ — في علم النفس . الأساتذة حامد عبد القادر ومحمد عطية الإبراهيمي
ومظهر سميد .
٥٦ — القاموس المحيط . الفيروز آبادي .
٥٧ — قبض الريح . الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني .
٥٨ — كتاب في أخبار الوزراء المصرية . نجم الدين عمارة الميني .
٥٩ — الكشكول . العارفي .
٦٠ — لسان العرب . ابن منظور .
٦١ — اللطائف والظرائف في الأضداد . الثعالبي .
٦٢ — مجاني الأدب . الأب لويس شيخو اليسوعي .
٦٣ — مجمع الأمثال . الميداني .
٦٤ — محاضرات الأدباء . الراغب الأصفهاني .
٦٥ — المخصص . ابن سيده .
٦٦ — المرأة في الشعر الجاهلي . الدكتور أحمد محمد الحوفي .

- ٦٧ — مروج الذهب . السعوى .
٦٨ — المستطرف . الأبهى .
٦٩ — المسرحية . الأستاذ عمر الدسوقى .
٧٠ — مصر القديمة . الأستاذ سليم حسن .
٧١ — مضحك المبوس (مجموع آداب وحكايات ونوادى . لم يعلم مؤلفه)
مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٠٢ أدب .
٧٢ — معجم الأدباء . ياقوت .
٧٣ — مقدمة ابن خلدون .
٧٤ — نثر الدرر . الآبى .
٧٥ — النجوم الزاهرة . ابن تفرى بردى .
٧٦ — نكت الهميان فى نكت العميان . صلاح الدين الصفدى .
تحقيق أحمد زكى باشا .
٧٧ — نهاية الأرب . التورى (السفر الرابع) .
٧٨ — الوزراء والكتاب . الجهميارى . تحقيق الأساتذة مصطفى السقا
وإبراهيم الإييارى وعبد الحفيظ شلبى .
٧٩ — وطنية شوقى . الدكتور أحمد محمد الحوفى .
٨٠ — يتيمة الدهر . الثمالى .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الرد بالمثل	١٥-١٢
القلب والعكس	٣٢-١٦
اللعب بالمعاني :	٥٤-٣٣
الكناية (٣٣) التورية (٤٠) الإجابة بغير المطلوب (٤٨) التعريض (٥١)	
التركم السياسي	٦٥-٥٥
التركم الاجتماعي	٨٤-٦٦
ما وراء الفظاظه :	١٢٠-٨٥
دالاتها اللغوية (٨٥) دالاتها النفسية (٨٨)	
دالاتها السياسية والاجتماعية في مصر (٩٣)	
بواعث الفكاهة عند المصريين (٩٣) دالاتها السياسية في مصر (١٠٢) دالاتها الاجتماعية في مصر (١٠٩)	

الصفحة

الموضوع

١٦٣—١٢١

أقاصيص فطاهية :

سخرية بسخرية (١٢١) دع حمارك مكانه

(١٢٥) أعرابي في مدينة (١٢٨) حيل لا تنفذ

(١٣٣) إيجاء (١٣٨) تخلص فكه (١٤٥)

جبان ظريف (١٥٠) أعجب خصومة أمام

القضاء (١٥٦)

١٦٤

المصادر والمراجع

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

ياسراف الأستاذ عمر الدسوقي

رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

صدر منها :

- ١ - قصة الملكية في العالم : تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي والدكتور حسن سمعان
- ٢ - الرومانتيكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الكبرى تأليف الدكتور محمد غنيمي هلال
- ٣ - زرادشت : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب تأليف الأستاذ حامد عبد القادر
- ٤ - كونفشيوس : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب تأليف الدكتور حسن سمعان
- ٥ - الفكاهة في الأدب العربي > ١ و ٢ : من الأدب والنقد تأليف الدكتور أحمد الحوفي

وسيصدر قريباً :

- ١ - قصة الزواج والمزوجة في العالم : من سلسلة حياة المجتمعات تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي
- ٢ - تاريخ الفكر الاقتصادي : من سلسلة الاقتصاد السياسي تأليف الدكتور لبيب شقير
- ٣ - بين القانون الروماني والشريعة الإسلامية : من سلسلة (دراسات دينية) تأليف الدكتور صوفي حسين
- ٤ - موتسكيو : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب تأليف الدكتور حسن سمعان

- ٥ — الكلاسيكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الكبرى :
تأليف الدكتور محمد غنيمي هلال
- ٦ — هوميروس : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الدكتور محمد صقر خفاجه
- ٧ — بوذا : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر
- ٨ — سوريا المعاصرة : من سلسلة حياة المجتمعات : تأليف الدكتور زكي المحاسنى
- ٩ — الأدب السورى المعاصر : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف السيدة وداد سكاكيني
- ١٠ — المعتزلة : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب : تأليف الأستاذ عمر الدسوقي
- ١١ — داروين : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب : تأليف الدكتور سيد بدوى
- ١٢ — سبنسر : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الدكتور سيد بدوى
- ١٣ — فرويد : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الدكتور عماد الدين اسماعيل
- ١٤ — البخارى : من سلسلة الدراسات الدينية
تأليف الأستاذ مصطفى زيد
- ١٥ — أدباء الرومانتيكية في فرنسا : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور محمد غلاب
- ١٦ — السرقات الأدبية : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور بدوى طنبانه
- ١٧ — حقوق الانسان في الإسلام : من سلسلة الدراسات الدينية
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي

